رواية

بوريس بيلينياك

أُمُّنَا الأَرضُ

ترجمها عن الروسيّة

د. تحسين رزاق عزيز

أمّنا الأرض

بوريس بيلينياك

ترجمها عن الروسيّة

د. تحسين رزاق عزيز

أمّنا الأرض

بوريس بيلينياك

ترجمها عن الروسيّة: د. تحسين رزاق عزيز

العنوان بالروسية:

Мать сыра-земля

ترجمة عنوان الكتاب بالانكليزية:

"Moist Mother Earth"

By Boris Pilnyak

Translated by Zeinab Tahseen Razak & Tahseen Razak Aziz

الطبعة الأولى: أغسطس ـ آب، 2022 (1000 نسخة)

This Edition Copyrights@Dar Al-Rafidain2022

All Rights Reserved/جميع حقوق الطبع محفوظة ©

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمر برفد جميع القراء بالكتب

بغداد ـ العراق/الشارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
daralrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 671 - 23 - 9

الإهداء

إلى

أ. س. ياكوفليف

أمّنا الأرض

ذهب ستيبان كليمكوف، وهو فلاح من قرية كادوم، إلى الغابة بالقرب من قرية إيفوفي كلوتش لسرقة اللحاء، وتسلق شجرة البلوط وسقط منها، فتعلَّق على الأغصان، ورأسه إلى الأسفل، وتشبَّثَ بغصنٍ من خلال حواشي حذائه اللباد؛ وسُمِلَت كلتا عينيه من اندفاع الدم إلى رأسه. في الليل، سلَّم الحطّاب كاندين لص الخشب إلى إدارة حماية الغابات، وأبلغ نيكولييف أنه أحضر «مواطناً يقطع الأشجار من دون تصريح». أمر مسؤول حماية الغابة نيكولييف بالإفراج عن ستيبان كليمكوف. وقف كليمكوف في الظلام بسَكينة ويداه مُسبَلَتان على جانبيه، حافي القدمين (قطع كاندين حواشي الحذاء عندما سحب كليمكوف من شجرة البلوط، وسقط الحذاء في الطريق). قال كليمكوف بهدوء:

ـ أريد مرشداً للطريق، يا سيدي الرفيق، لقد فقدتُ عينَيَّ إلى الأبد.

انحنى نيكولييف على الرجل، ونظر في اللحية الكثيفة: ورأى المكان الذي كانت فيه العينان قد تقلص إلى شقَّين ميتين، والدم يتدفق من الأذنين والأنف.

بقي كليمكوف ليقضي الليلة في إدارة حماية الغابة؛ فتُرِكَ لينام في كشك الحراسة عند كوزيا. روى كوزيا، الحرّاج (حارس الغابة) والقصاص، حكاية تحدَّثَ فيها عن ثلاثة من الكهنة، وعن القدّاس، وعن الفلاح الذكي إيليا إيفانوفيتش، وزوجته أنوشكا والسكير فانيوشا. كانت ليلة من ليالي شهر يونيو (حزيران) المقمرة. وكان نهر الفولغا تحت الجبل صامتاً. وفي الليل، جاء الشيخ إيغنات من الكهف، وتبعه الراعي مينكا، أدرك الشيخ أنه لا يمكن إرجاع عينَي ستيبان كليمكوف ـ لا بصلاة ولا بتعويذة، ولكن لا بدّ من أنْ توضع عليهما عشبة لسان الحمل، «حتى لا يتسرب النخاع».

... البطل الرئيس في هذه القصة عن الغابة والقرويين (بالإضافة إلى الحرّاج أنطون إيفانوفيتش نيكولييف، ودبّاغة الجلود إيرينا ـ إيرينا سيرغييفنا أرسينييفا، وبالإضافة إلى

الصيف والوديان والصفير والأزيز) ـ الشخصية الرئيسة ـ جرو الذئب، الجُرْموز الصغير نيكيتا، كما كانت تدعوه إيرينا سيرغييفنا أرسينييفا، هذه المرأة التي ماتت على نحو غير مألوف وعانت كثيراً، من جرو الذئب هذا ـ الذي قُتِلَ من أجل أنْ يؤخَذ جلده. كان هذا الجُرْموز، قد اشتُرِيَ مقابل عدد قليل من الكوبيكات في مدينة تيتيوشي الأصلية (وليس في القرى الصغيرة التي تحمل اسم تيتيوشي) على نهر الفولغا، في مقاطعة كازان، في الربيع، كان صبي في مكتب الشحن يقف ليبيعه، ولم يشترِه أحد، كان يرقد في سلة. فاشترته إيرينا سيرغييفنا.

لقد تعلم للتو أنْ يفتح عينيه، وكان جلده بلون أوراق التبغ الأسود، وكانت تفوح منه رائحة الكلاب، فأخذته إلى حضنها، ودفأته على صدرها. خطر لها أن تقارن لون شعر جلده بالتبغ، ـ كان صغيراً، أصغر من قط، أصابها بالخَدَر، مثل التبغ، بغموضه، غموض الذئاب. قال الصبي الذي باع جرو الذئب إنه عُثِرَ عليه في مرجٍ في الغابة، ـ ذهب الأولاد إلى الغابة بحثاً عن بيض الطيور وصادفوا ولادة الذئاب (كانت الجراء لا تزال عمياء)، ومات خمسة من الجراء من الجوع، وبقي، هذا الجُرْموز وحده على قيد الحياة. لم يستطع الجُرْموز اللعق. تخلفت إيرينا سيرغييفنا عن السفينة، وحصلت في مدينة تيتيوشي على مصاصة «بَزّازة» (بموجب التفويض) شبيهة بتلك التي يُطعَم بها الأطفال، وأطعمت جرو الذئب من هذه المصاصة، وعندما تطعم الجرو كانت تهمس له:

ـ كُلْ، يا أحمق. ارضَع، يا نيكيتا، اكْبرْ!

... تعلمَت قضاء ساعات (مثل الأم) تتحدث إلى جرو الذئب. كان الجُرْموزُ متوحشاً، وكان يخاف من إيرينا سيرغييفنا، فيزحف إلى الزوايا المظلمة، ويضع ذيله الوبري تحته، وعيناه السوداوان الساهرتان دائماً تحرسان بلمعانٍ متفحص من هناك، من الظلام، كل حركة من حركات يَدَي إيرينا سيرغييفنا وحركات عينيها، ومتى ما تقابلت أعينهما، تغدو عينا الجرو الثاقبتان اللتان لا ترمشان، غريبتَين جداً، وتنظران من هذا الرأس المثلث مثل زِرَّين لامعين ذكيين، ولكنَّ مثلث الرأس، المتكوّن من فم حاد، وأُذنَين سوداوين حادتَين أيضاً، يبدو كله

غبياً وغير مخيف على الإطلاق. وكانت رائحة الكلاب الكريهة تفوح منه، فأفسدَت هذه الرائحة كل شيء فيه...

... هناك في طبيعة الفولغا (عند مجرى النهر بالقرب من ساراتوف وسامارا) نوع من الوهن والذبول. فقد تدفق نهر الفولغا، هذا الممر المائي الروسي القديم، برحابة وبوحدة وبوحشية. في يوليو (تموز) ذبل العشب على الجبال، وكانت رائحة الشيح تفوح، والصخور تلمع على ضوء القمر، فتعيى الأرجل وتكتسي بالغبار. وكانت أوراق أشجار البلوط والقيقب صلبة، مثل صفائح القصدير. هنا لا تنمو أشجار الصنوبر، ولهذا لا تبعث على الهدوء سوى أشجار القيقب التتري. ولا توجد أزهار. والنيران على الجبال (يمكن تمييزها عن الضياء الشمالي القطبي) يمكن رؤيتها من نهر الفولغا من مسافة عشرات الفيرستات(1)، من خلال غبار سديم أستراخان. ومن ثم، فمن المعروف أنَّ الغبار يولد ـ من خلال الجنادب، ومن خلال صرير الجنادب في يونيو (حزيران). على اليمين ـ الجبال مكسوة بالغابات. الغابات ـ خلف الجبال وعلى الجبال. وعلى اليسار ـ شريط من الأرض غمرته مياه الربيع، وخلف هذا الشريط امتدت السهوب. وبعيداً في العتمة، عبر نهر الفولغا، تُرى أبراج أجراس الكنائس غير الروسية: إنها «أعمدة كنائس» ألمانية.

ذات مرة، على ما يبدو، أعطى الإمبراطور بافل الأمير كادومي صك هبة، كُتِبَ بخط الإمبراطور:

... «اذهب، يا صاحب السعادة، إلى نهر الفولغا، إلى مدينة ف، هناك يوجد جبل ميدينسكايا على بعد ثلاثين فيرستاً، اصعد، يا صاحب السعادة، إلى هذا الجبل وكل ما تراه عينك، يا صاحب السعادة ـ لك...».

... على نهر الفولغا، في الأماكن التي صارت سهوباً، وعلى الجبال وعلى الجزر، على بعد سبعين فيرستاً على طول الساحل، ظهرت غابات ميدين، نمت غابات الصنوبر ذات الأخشاب الصالحة للبناء، وأشجار البلوط والقيقب والدردار، ونبتت أجمات، وغابات كثيفة، وغرائس ـ آلاف الهكتارات. عند جبل ميدينسكايا في الجوف أصبح منزل الأمير، وقد

صُعق في العام تسعمائة وسبعة عشر. لم يكن هناك شيء سوى المخافر وأكشاك حراس الغابات، فالقرى والبلدات بعيدة عن الغابات... ابتعدت عن الغابات وعن الأمير. ـ كتب الحراج نيكوليف لأصدقائه في لجنة المقاطعة عن الطريق المؤدي إليه: ـ «... بالباخرة تحتاج للوصول إلى قرية فيازوفي؛ وفي فيازوفي تحتاج إلى العثور على الحطاب تسيبين، وسوف يهزك مسافة ستة عشر فيرستاً على العربة، عبر الغابات، وعبر الجبال والأخاديد،... أو صياد الأسماك فاسيلي إيفانوف ستاركوف (عليك أن تسأل عن الصياد فاسيلي)، وسيحملك، بنفسه ـ إلى مسافة اثني عشر فيرستاً في أعالي نهر الفولغا. يكذب مَن يقول إنَّ الناس لا يركبون على الناس إلا في الصين: في ديارنا، يُمارس هذا أيضاً ـ ستاركوف بدأ يعمل سفّاناً، يجرّ السفن. سيجلس ابنه على المقود، وأنت في القارب، ـ ويجرّ القارب بالحبل، مثلما كان يحدث قبل ثلاثمائة عام، ثم سيحملانك بأنفسهما، بالدور، سيوصلانك إلى إدارة حماية الغابة. إنَّ ستاركوف هذا، نفسه، إذا ما سألته: ـ «كم لديكم من الشيوعيين في فيازوفي؟» ـ فسيجيب: ـ «لدينا القليل من الشيوعيين، ولكن لدينا المزيد والمزيد من الناس، إنهم على بعد منزلين من الشيوعيين». ـ وإذا سعينا أبعد من ذلك وسألنا، فمَن، هم، بالضبط هؤلاء الناس؟ ـ فسوف يقول: ـ «الناس ـ طبعاً: ناس. هؤلاء الناس، يبدون كأنهم، من البلاشفة».

اصطفت الأشجار صامتة، وذبلت. ـ ولكن لو كانت هناك أذن كبيرة تسمع لعشرات الأميال، ـ ففي خشخشة الغابة وحفيفها في الليل، كان سيمكنها أنْ تسمع قرقعة الأشجار المتساقطة التي يقطعها اللصوص، وصلصلة المناشير، والأحاديث في الوهاد، وعلى الجبال، وفي كهوف وأكواخ مُقطّري الساموغون(2) والفارّين من الخدمة العسكرية، وأصوات الخطوات والنداءات، وضرب النار في السماء على يد الحطابين وحرّاس الغابات، والصفير والأزيز، وزعيق البوم، وصراخ البشر، والآهات وأصوات وقع حوافر الخيل... في الليل، تُرى نيران الغابات من بعيد، وإذا ما كان الناس قد أشعلوا هذه النيران في الأجواف، ـ ينتشر الدخان بعيداً في الندى؛ نيران الليل مخيفة، ومخيفة كذلك الحكايات التي تُروى قرب نيران الليل الروسية. تتجنب الذئاب الاقتراب من النيران وتجتاز من خلفها. والنهار في الغابات، في

يوليو (تموز) دائماً ما يكون فسيحاً، والغابات فيه تفوح منها رائحة أشجار القيقب التتري. الناس الذين في الغابات ـ الحطابون وحراس الغابات والعاملون في إدارة حماية الغابات ـ يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأنَّ العالم البشري بأسره مقسم إلى قسمين ـ إليهم، أي الحطابين وحراس الغابات والعاملين في إدارة حماية الغابات، وإلى «مواطنين يقطعون الأشجار من دون تصريح»...

... كان يوماً مشمساً مفعماً بالحيوية عندما وجد الحراج أنطون نيكولييف، وهو رجل نشيط مرح، كوزما تسيبين في فيازوفي، وأخبره أنه حراج جديد، وأنه شيوعي، وأنَّ الباخرة كانت مزدحمة للغاية، وأنه يريد الذهاب إلى مجلس القرية، وأنَّ في الليل عليه أنْ يذهب إلى مدينة ميدين، وأنَّ لينين، اللعنة، ـ عقلية! ولكنه لم يتحدث عن أنَّ ستة عشر آخرين من عمّال المصانع سوف يأتون على أثره من أجل منع نهب الغابات، ولأنَّ هذه الغابات أدّت دوراً حاسماً في حركة البواخر على طول نهر الفولغا ـ كُلِّفَ هو والستة عشر الآخرين بالتعامل مع قاطعي الأخشاب إلى حدّ قتلهم رمياً بالرصاص. في مجلس القرية، كان رئيس المجلس والسكرتير جالسَين، في سلام وهدوء، يشربان الساموغون ويمزمزان بسمك الجري (القرموط)، ـ أمر الرئيسُ السكرتيرَ أنْ يقدِّم القدح الثالث إلى نيكولييف... استمعَ تسيبين وشاهدَ كل شيء بالتفصيل؛ في الصباح، بمجرد وصول نيكولييف، أرسل البريد إلى مدينة ميدين من خلال مخافر الحراسة حتى يذهب كوزيا ليأتي بحرّاس الغابة الجدد، ـ كانت الكلمات «بريد» و«مخفر» قد استقرَّت في قاموس الغابة منذ العصور التي كانت فيها روسيا مجرد إمارات. استمع تسيبين إلى نيكولييف بإصغاء دقيق، ولكن، لكونه صياداً شغوفاً، رداً على ذلك تحدث عن طيور الطيهوج الأسود، وعن الثعالب، وعن البنادق ذات الماسورة المزدوجة، ـ وتحدث، من بين أشياء أخرى، عن كيف قتلَ الفلاحون الحراجي السابق: لقد قتلوه في المنزل، وفتقوا أمعاءه، وقيّدوا يديه وقدميه بالأمعاء، ـ حاول الجميع دسَّه في آلة بيانو كبيرة، لكنهم لم يفعلوا، وألقوا به مع البيانو من الجرف إلى نهر الفولغا، ـ البيانو لا يزال معلقاً على الجرف، مستقرّاً على أشجار الصفصاف؛ وقال بأنَّ الصيد في تلك الأماكن كان مُقتَصِراً على الدائرة المحيطة بالقيصر، ـ وإذا ما كنتَ، على

سبيل المثال، تطمع في صيد الثعلب في يناير (كانون الثاني)، عندما يتضور جوعاً، يمكنك جمع مائة من جلود الثعالب في الشتاء، ـ ولكن هذا، بالطبع، ليس من شيم صياد البندقية، ـ على العكس من ذلك، كان يُعَدّ عاراً. ـ وصل كوزيا على عربة ركوب خفيفة، استُبدِلَت عجلاتها الأمامية بعجلات عربة يد، والعجلات الخلفية بقيت على المطاط. جلس كوزيا في المقدمة، ويداه إلى جانبيه، وأفاد قائلاً: ـ أتشرف بالمجيء... قدَّم له نيكوليف يده، وصفق على كتفه. فقال كوزيا:

ـ يشرفني أن أبلغك، لذا فمن الأفضل لنا أن نقضي الليلة هنا، وإلا سترى ـ في الليل سوف يهاجمنا سارقو الأخشاب. الحقيقة، أصبح الناس، بصراحة، أوغاداً، ولا شيء سوى الشناعة.

تبيَّن أنَّ تسيبين لديه رأي مختلف حول الوضع. فقال:

ـ أتعني أنهم سوف يحاولون المساس بالرفيق أنطون إيفانوفيتش نيكوليف؟ إنه شيوعي بلشفي. الآن الغابات لنا. وحتى إنْ حاولوا المساس؟ فأنا سوف أرافقك إلى قرية إيفوفي كلوتش، سنسير على السهوب، نحو المُنعَطَف. أنطون إيفانوفيتش لديه مسدس، ولديك بندقية، وعندي بندقية، وسوف أطلب من ابني أنْ يسير أمامنا، وسأعطيه بندقية مزدوجة الماسورة. سنعدمهم جميعاً رمياً بالرصاص! وهل بمقدورهم أنْ يمسّوا البلاشفة. إنه جاء شخصياً من أجل أنْ تبقى غاباتنا لنا. الآن، صارت الحالة، أنْ تأخذ ما تريد من دون سرقة، وحسب القانون.

السهوب في شهر يوليو (تموز) خانقة، ونقيق الجنادب فيها يُضني، وتفوح منها رائحة أشجار الشيح. طوال الوقت كان يومض البرق الخفيف... هبطوا من الجبل، واجتازوا وادٍ ضيق، ومرّوا من جانب طواحين الهواء، كانت السهوب منبسطة في كل مكان، وبقيت هكذا على حالها منذ قرون. وساروا إلى المنعَطَف. وسرعان ما نام تسيبين، وجعلَ كوزيا يترنَّم همساً من أنفه. كان الظلام الدامس والهدوء الشديد يعمّان المكان، ولا يُسمَع سوى صرير الجنادب. ثم هبطوا إلى الوادي الضيّق مرة أخرى وصاروا يسمعون السناجب الأرضية تُصأصئ وتصفّر بالجوار... نزل كوزيا من العربة، وقاد الحصان من اللجام، وقال إنَّ

السناجب الأرضية قد حفرت جحورها على الطريق كله، ولربما، يؤدي ذلك إلى كسر رجل الحصان. ثم تسلقوا إلى الجبل ورأوا كيف شقَّ الوميض في صمتٍ السماءَ بعيداً في السهوب، وعلى الجبال، وفوق نهر الفولغا،... ولم يتناهَ إليهم صوت الرعد. قال تسيبين بنعاس: «ستكون هناك عاصفة رعدية».... ومرة أخرى انشقَّت السماء، بصمتٍ أيضاً، ولكن الآن في جهة اليسار، فوق السهوب الحقيقية. ركض الحصان خبباً، فتناثر التراب الأسود الجاف من جراء ضربات الحوافر وقعقعةِ العجلات الرنانة، ـ فبدا لهم أنَّ الجنادب قد هدأت... وانشقَّ نصف السماء الضخم، من الشرق إلى الغرب، بصمت، وفتح مَدَياته التي لا نهايات لها، وحنت أزهار عباد الشمس رؤوسها الثقيلة بجانب الطريق... وبعد ذلك اجتاح الرعد، كالعربات الكبيرة، السهوبَ من بعيد، وصار الجو خانقاً للغاية. ومَضَ البرق وميضاً لا يُحصى، وتشققت السماء بأكملها إلى أشلاء من جرّاء البرق وأصبحت السماء بأكملها مثل لعبة القناني الخشبية، حتى يمكن لعناصر الطبيعة المرحة أن تدحرج قناني الرعد. استيقظ تسيبين وقال: «علينا، يا كوزيا، أن نذهب إلى الرعاة، لنجلس في ملجأ يحمينا من المطر، لا نريد أن نبتل».

العاصفة الرعدية، والمساحات المفتوحة، والرعد والبرق ـ بدت لنيكوليف بهجة غير عادية، وبقي يتذكر هذه الليلة طوال أيام وجوده في الغابات. وتذكّر كيف ذات مرة، في شبابه، كان يصرخ في عاصفة رعدية، ويصيح مع قصف الرعد!... لم يتمكنوا من الوصول إلى ملجأ الرعاة: اجتاحت السهوبَ الرياحُ من جميع الاتجاهات، واندفع البرقُ وقصفَ الرعدُ في جميع الجهات، ـ هطل المطر عند مسافة مائة خطوة تقريباً من الملجأ الأرضي وغمره على الفور. فزحف الطين الأسود على المسار المؤدي إلى الملجأ في لحظة، وتدفق التيار في المخبأ. صرخ أحدهم صرخة خوفٍ: «مَن هذا الشيطان الذي يتجول هنا؟» وقف الحصان مطيعاً عند السياج المبني من أغصان مجدولة. وفي ضوء البرق الساطع، وضع نيكوليف نصب عينيه كيف يخطو نحو الملجأ... وفي ظلمة المطر الدامسة، تدحرج في بِرْكة. وسمع في الرعد حديثاً في مكان قريب: «هل أنت بوتاب؟ هذا أنا، تسيبين». ـ «أعواد الثقاب لدينا نقعت في الماء. ما الذي دفعك، هل جئتَ من أجل الصيد؟» ـ «كلا، إني أنقل

سيداً، إنه شيوعي، حراجي جديد». مرة أخرى، شقَّ البرقُ السماءَ، وفي الجوار ركض صبي إلى الملجأ... قال، بعد أنْ غشيه الظلام، هو والملجأ: «يا تياتيان، مرة أخرى جاءت الذئاب، إنها قطيع. وهناك يقف حصان غريب، غريب، الذئاب بالقرب منه!» ظل كوزيا جالساً بجانب الحصان تحت العربة، ـ ذهب تسيبين ونيكوليف بالبنادق، والراعي العجوز بالعصا، إلى الحصان. عثروا على الحصان يتسلق السياج، ويصهل، وكوزيا كان واقفاً وينفض الطين عن ملابسه، وهو يكيل السباب بأنين. ـ «جلستُ تحت العربة، بمجرد أن برقَ الضوء، رأيتُ كيف يرفرف الفرس الرمادي على سياج الأغصان. يا ترى، كيف بقي قذاله سليماً؟!» ـ «يا أحمق، إنها الذئاب!» ـ «وماذا؟» سحبوا الحصان من السياج، واستبدلوا بالسرج المنفتقِ حبلاً. وقرروا المضي قُدماً. ركبوا العربة وساروا. جُرِف الطريق على الفور، وتدفقت الجداول. فهبطوا إلى الوادي الضيق. قال تسيبين: «اسمع، يا كوزيا، لا تركب الجسر، ستُكسَر ساقُ الحصان». هناك، عند الجسر، ـ أوضح لنيكوليف، «قتل القرويّون أميراً من النبلاء». تدفق تيار على طول الوادي، انقطع هطول المطر، وانتهت العاصفة الرعدية، وقلَّ البرق والرعد. فبدؤوا في الصعود من الوادي، زحفت أرجل الحصان في الوحل، وانزلقَت، ـ فنزل الركّاب. وراحوا يدفعون العربة، ـ صعدوا إلى نصف الجبل ثم زحفوا مرة أخرى إلى الأسفل، جميعاً، كلهم معاً، الحصان والعربة والناس؛ سقط الحصان فكان لا بدّ من حلّ عدّته عن العربة. ومضَ البرق فرأوا ـ في الأعلى، على حافة الوادي، على بعد عشر خطوات، قطيعاً من الذئاب جالساً على التوالي. قال تسيبين: ـ «عليكم أن تجروا العربة، لا يمكننا قضاء الليلة هنا، سوف ترهقنا الذئاب». اقتادوا، أولاً، الحصان إلى الأعلى، ثم سحبوا العربة. كان نيكوليف يشعر بالمرح طوال الوقت.

توقفَ المطر. فانطلقوا في الظلام، والحفيف والرائحة الخانقة، وفي رذاذ الأغصان ـ إلى الغابة. نزل تسيبين، تنحّى، وذهب إلى أحد معارفه في كوخ حراسة. تساءل نيكوليف، كيف تمكَّن كوزيا من معرفة الطريق ولم يخطئ في هذا الظلام الرطب والخانق، الذي لا يُرى فيه شيء، مهما حملق المرء بعينيه. ظلَّ كوزيا صامتاً.

ـ... عندما قرر الرجال قتل الأمير النبيل، ـ جاء تسيبين نفسه إلى الأمير كادومسكي وقال: «كيت وكيت، يجب عليك أنْ ترحل، سوف يسحقونك، قرر الفلاحون قتلك». فقال الأمير للخادم: «أُأمُر بأنْ تُشَدّ عدة الترويكا(3)!» فقال تسيبين له: «الخيول، يا صاحب السعادة، لا يمكن أن تُعطى لكم، لن نسمح بذلك، لأنها أصبحت مُلكاً للشعب!». هرع الأمير، وارتدى زي تجار الماشية، وأخذ جزمة الحوذي وقبعته ووشاحاً أحمر حول رقبته. وارتدت زوجته شالاً. وخرجا في الليل، مُتَخَفِّيَين. وعند الجسر الصغير قابلهم تسيبين: «كيت وكيت، يا صاحب السعادة، ألا تُنعِم عليَّ ببقشيش، مُقابل تحذيري إياك». فأعطاه الأمير قطعة معدنية، روبلاً من الفضة، ـ ولا يُعرَف مَن قتل الأمير.

صمتَ كوزيا. وصمتَ نيكولييف أيضاً. وسارت بهم العربة سيراً بطيئاً في الظلام الدامس. وكانت اليراعات المضيئة تتوهَّج من حين لآخر على الأرض.

ـ وبعد ذلك، من بين ما يُقال، كان يعيش في إحدى القرى رجلٌ، رجلٌ ذكي للغاية وحسن التدبير، كان اسمه، لنفترض، إيليا إيفانوفيتش. (بدأ كوزيا يتحدث ببطء وبصوت شجي) ـ وكان لديه زوجة جميلة، امرأة شابة، وكانت الزوجة مخلصة لزوجها، كان اسمها أنوشكا. لكن القرية كانت كبيرة، لاحِظوا، كان فيها ثلاث كنائس مخصصة لآلهة مختلفة... وهكذا ذهبت أنوشكا إلى القداس، ومما لا بدّ أنْ يقال، إنَّ قداس كل كنيسة يبدأ في وقت مختلف عن غيره. تمشي أنوشكا، ويلتقي بها القس: «كيت وكيت، مرحباً، يا أنوشكا! ـ ثم أخذها جانباً: ـ كيت وكيت، يا أنوشكا، هل يمكن أنْ نلتقي في المساء، عند الغسق؟»، فردَّت عليه أنوشكا: ـ «هل ثمة شيء، يا أبانا؟»، وتركته وذهبت مباشرة إلى كنيسة أخرى. فصادفها الكاهن الآخر: ـ «كيت وكيت، مرحباً، يا أنوشكا!» ـ وهذا أيضاً أخذها جانباً وقال: ـ كيت وكيت، يا أنوشكا، هل تمانعين في قضاء الليلة معي؟».

ـ عن أيِّ شيء تتحدث؟ ـ سأل نيكولييف في حيرة.

ـ إني أقصّ عليكم حكاية، ـ الجميع يحب الطريقة التي أقصّ بها الحكايات...

ـ... وبعد ذلك طلع نهار مشمس مبهج، ـ نهار خرج مثل الشمس المباركة، من ظلام رطب في ليلة من ليالي السهوب العاصفة، التي كانت تفوح منها إلى حدّ الجنون رائحة الغابة والأرض والنعمة. الأمر الذي يجعل المرء ينفخ رئتيه مثلما تنتفخ الإسفنجة من الماء. فثمة رائحة طيبة تنبعثُ عندما تنسكب أشعة الشمس على أشجار القيقب التتري. كان البيت الأبيض المذهِل يتوهَّج بالشمس مثل نجوم كوكبة العظاءة، ومثل شظايا الزجاج، ومن حديقة الكروم على الشرفة سقطت قطرات مطر كبيرة، بالكاد تلامس البيت. كان نهر الفولغا فوق الجرف يلمع من الشمس، إلى درجة تمنع النظر إليه. إذا ما وضِعَت إطارات، ورُبِطَت، مقابض الأبواب، وثُبِّتَت، فتحات التهوية والأبواب في المواقد، وبُسِطَ الباركيه المسروق بأرضية جديدة، فسيكون المنزل في حالة جيدة، وهذه كلها أشياء صغيرة! ـ ومن الغرف البعيدة، سُمِعَت بوضوح خطوات مكتومة كصوت صدى في السقف، متجهة نحو الغرفة التي كانت فيها يافطة على الباب الخارجي مكتوب عليها «المكتب»، ـ خرج رجل مفعم بالحيوية يرتدي قميصاً أزرقَ ذا ياقة جانبية، في حذاء صيد ـ شابٌّ وسيمٌ ذو شعر مجعَّد. جلست النظارات الأنفية أمام عينيه بشكل متناسب جداً، ـ ليس مثل شعره المنفوش الجامح. في المكتب، كما هو الحال في مكاتب الحسابات في الكرة الأرضية، كانت المخططات والخرائط موضوعة بشكل كئيب على طاولة الرسم، وعلى الجانب الآخر ـ كانت قطعة من قماش أخضر ملطَّخة بالحبر وبشحم الشمع، وهذا يشهد على خربشات على مدى العديد من الليالي،... وحملت الشمس انتعاش العالم كله من خلال النوافذ. خطا كوزيا نحو نيكولييف. كانت يداه مُسبَلتين على جانبيه، ـ وكان كوزيا حافي القدمين، يرتدي سروالاً من قماش أزرق، من النوع الذي يرتديه رجال الجندرمة، وقميصاً بهتَ لونه بفعل الزمن، غير مربوط وذا ياقة مفكوكة؛ وكان كوزيا لديه شارب بني كثيف ـ رهيب، جعل وجهه المستدير اللطيف ليس مخيفاً على الإطلاق، بل غبياً نوعاً ما. قال كوزيا:

ـ يشرفني أن أبلغك، هناك، جاء حراس الغابة، القرويّون، وقد سلَّمَ الحراس سارقي الأخشاب. وثمة امرأة تسأل عنك امرأة... هل نسمح لها بالدخول؟

ـ اسمح للجميع.

ـ يشرفني أن أبلغك، أنَّ الحراج العجوز تحدث إلى الجميع من خلال هذه الكوة، وخاصة في هذه الحالة، فقد أمر بإحداث ثقب في الحائط.

ـ اسمح للجميع بالدخول.

لبضع دقائق كان ثمة اجتماع في المكتب، فقد دخل القرويّون؛ بعض منهم قُبِضَ عليه وهو يقطع الأخشاب، وبعض منهم جاء بصفة سُعاة، إذ لم يكن من الممكن استيضاح الأمر؛ اصطف حرّاس الغابة مثلما يصطف الجنود، على التوالي، مع بنادقهم. هدر القرويّون على نحو ودي، وباحتراس:

ـ الغابات الآن لنا، ونحن أصحابها!

ـ إنه مثلك، أيها الرفيق، فهو شيوعي، ـ إننا نرغب بقطع الأشجار في وادي قرية موكري بويراك، وهو من ضواحي كادوم!

ـ الألمان(4) من خلف نهر الفولغا، ـ إذا ما جاؤوا إلى جهتنا في الغابات، فسوف نكسر أرجلهم كلها!..

ـ وهكذا هم التتار أو الموردوفيون.

ـ أنت، أيها الرفيق السيد، احكم كما ينبغي، ـ لقد قطعنا الأخشاب ونريد أن نبيعها في مدينة ساراتوف بسعر معقول!

قال نيكولييف بمرح:

ـ أيها الحمقى، يا رفاق، لا أحد يمكنه كسر رِجل أحد، ولا أحد يتظاهر بأنه أحمق. أما كوني شيوعياً، فهذا صحيح، لكنني لن أسمح لكم بسرقة الغابات. وأنتم، أنفسكم تعرفون، أنَّ هذا لا ينبغي فعله، أما بخصوص الزعيق، فأنا أيضاً أستطيع الصراخ، وإنَّ حنجرتي بصحة جيدة وقادرة على الزعيق!

وقف أحد الفلاحين بجانب نيكولييف، حافي القدمين، يرتدي معطفاً عسكرياً قديماً، ويمسك بقبعة من الفرو في يديه، ـ فقال نيكولييف:

ـ حسناً، لماذا تلوي قبعتك، ألا تخجل، اعتَمرها!

شعر الفلاح بالحرج، وجعل يرمش بعينيه، وأسرَعَ يعتمرها، ثم خلعها بسرعة، وأجاب بحنق:

ـ الشاي هنا في المنزل، الصور معلقة!...

دخل ستة ألمان إلى الغرفة، اثنين ـ اثنين، ببطء وهدوء، كلهم في سترات، لكنها رثة، مثل ملابس الروس.

سأل واحد من الألمان:

ـ Konnen Sie deutsch sprechen? (هل تتكلم باللغة الألمانية؟)

ـ بدأ الفلاحون يتحدثون بصوتٍ عالٍ عن الألمان، ـ هاك، سيقولون، غاباتنا! ـ جلس نيكولييف خلف الطاولة، ومد رجليه إلى الأمام، وتمايل على الكرسي، وتحدث بطريقة جدية:

ـ أيها الرفاق، هل تجلسون على النوافذ، أو شيء من هذا القبيل، ـ دعونا نتحدث بوضوح. يوجد هنا أشخاص معتقلون، بمجرد أنْ أدعهم ينصرفون، سأعيد لكم المناشير والفؤوس، ـ ليس هذا هو الهدف. إذ لا يجوز قطع الغابات عبثاً، احكموا بأنفسكم، ـ وبدأ يتحدث عن أشياء واضحة له، كأنما لا قيمة لها.

غادر الفلاحون والألمان بصمت، واعتمرَ كثير منهم في نهاية الحديث قبعاتهم، ومع ذلك، كان نيكولييف آخر من قال على نحو وديّ: في الحقيقة، أيها الرفاق، سأفعل ما هو

ضروري، وسأنفِّذ ما يلزم، ـ وأنتم افعلوا ما تريدون!... أحَبَّ نيكولييف أن يكون «من دون حمقى».

انتصب كوزيا واقفاً، وقال:

ـ يشرفني أن أبلغك، ـ هل تريد بيضاً أم حليباً؟ ذلك الشيء غير موجود لدينا، ـ سوف تذهب ماريشا في الزورق إلى الألمان.

ـ عموماً، ينبغي عليَّ أنْ أتحدّث مع زوجتك بشأن إطعامي، ـ دعنا نأكل معاً. اشتَروا البيض. ـ

عندما دخلت إلى المكتب إيرينا أرسينييفا، المرأة الفائقة الجمال، دباغة الجلود. ـ كان الصباحُ مشمساً، وكان نيكولييف نشيطاً ووسيماً ومليئاً بالشباب والحيوية. وكوزيا يقف حافي القدمين، بسحنة غبية، ويسبل يديه على جانبيه. كان قماش المكتب الأخضر مبقَّعاً بالكثير من الحبر وشحم الشمع....

ـ «أحتاج إلى الحصول على مذكرة منك بخصوص اللحاء. سننزع اللحاء بأنفسنا. ها هو التفويض، ـ أحتاج اللحاء إلى مدابغ شيخانوف» ـ على التفويض إلى اليمين في أعلى عبارة «يا عمال العالم، اتحدوا!» ـ وعلى الوثائق، في دفتر العضوية ـ عبارة جميلة لكليهما ـ الحزب الشيوعي الروسي. ـ «هل قُتِلَ سلفُك؟ ـ الأمير قُتِل؟» ـ «الرجال هنا في حرب فلاحية حقيقية مع الغابات». كان حديثهما طويلاً وغريباً وحيوياً، حيوياً مثل حيوية الشمس كلها. ـ لدى أحدهما ـ هناك، في مكان ما ـ مؤسسة غابات في ألمانيا، ومصانع ومستوطنات صناعية روسية؛ أنْ تكون ثورياً ـ هذه مهنة، ففي ثكنات المصانع، وفي الممرات توجد نيران خافتة، فكم يكون الحلم جميلاً في الساعة التي يطرق فيها الموقِظ على أبواب الغرف («استيقظوا، استيقظوا، ـ من أجل المناوبة، ـ دوَّت الصافرة!»)؛ ولكنَّ العالم جميل، العالم مشمس، لأنَّ الإرادة القوية والإيمان الراسخ في جمال العالم ـ «الخالي من الحمقى» اكتُسبا بالنسبة لنيكولييف من خلال مؤسسة الغابات، ومن خلال الخنادق في

بلدة ناروتش، من الطفولة في جبال الأورال، ومن الكتب ذات أغلفة الورق المقوى (الوديان تحت الجبل، أما خلف الجبل، في البراري، فعلى ما يبدو، لم يكن إنسان، إذ لم يكن هناك سوى الدببة وراهب في الملجأ): لدى نيكوليف، كل شيء صحيح، كما في لعبة الشطرنج: هنا في ميدين، وهناك في موسكو وفي هالي وباريس ولندن وفي مصانع الأورال. وحتى بالنسبة لها: نهر الفولغا، وسهوب الفولغا، ومنطقة ما وراء الفولغا، والسياج على أطراف القرية، ـ على الجانب الآخر من السياج توجد سهوب اللصوص ودروبهم، على هذا الجانب ـ أحواض دباغة الجلد ورائحة الجلود الكريهة والدباغة؛ وهذه الرائحة حتى في المنزل، وحتى في فطائر الأحد، المنتفخة مثل فِراش الريش، ومن فِراش الريش، مثل الفطائر في العيد؛ وبخور الأم (ماتت أمها عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها. فكان عليها أن تحل محل أمها في الأعمال المنزلية وتتعلم تجارة الجلود)، والأب، الذي مثل جلد ثور مدبوغ أُخرِجَ من الحوض، والساعة ذات الوقواق، وعفريت المنزل خلف الموقد، والشياطين؛ وفي سن الثالثة عشرة في الصف الثالث في مدرسة الجيمنازيا(5) (كان صدرها قد اتخذ شكله تحت الثوب البني) وقد كبرت في عام سبعة عشر كثيراً لتكون فتاة جميلة من نساء ما وراء نهر الفولغا؛ استقبلتها بطرسبورغ والدورات بسلاسة ضبابية، لكن الضباب كان منخفضاً مثل أسقف منزل أهلها، وفي شارع الخط السادس عشر في غرفة الطلاب، لم يكن ينبغي عليها قتل البق ـ ولكن بقيت السقوف في المنزل بعدهم على حالها. وبعدما مات الوالد ـ بدت حتى أكثر انخفاضاً، وخانقة، ومسودّة من الدخان، وعفريت المنزل لم يعد خلف الموقد، فذكَّرَتها رائحة الجلود بطفولتها الغامضة؛ دخلَت إلى المنزل ـ كالقمر في الليل، فأحضر كبير الموظفين (مثل كلب البُلدوغ) دفاتر حسابات قديمة عليها آثار الدسومة من الاستعمال، وتدحرج رجال الدرك كالجرذان، فتَّشوا، وخشخشوا، واعتقلوها خارج بطرسبورغ، ـ لم تستطع أن تتصالح مع المنزل، أو مع قسم المحاسبة، أو مع الجرذان، أبداً، فالجمال منحها الحق بأنْ تصرخ بصوت عالٍ، وأصبحت ممرات السجن مثل صراحة بطرسبورغ، التي لا يمكن إخماد القمر فيها بأي شكل من الأشكال: هذا بالنسبة لإيرينا أرسينييفا. فكل شيء لديها صحيح أيضاً كما في لعبة الشطرنج، وحتى في معامل الدباغة (التي تفوح الطفولة برائحتها) ضرورية للجيش الأحمر، ولا بدّ من تركها. السنوات لدى

النساء تَستبدل بضوء الشمس ضوء القمر: إن امتلاء سن السبعة عشر عاماً إلى سن الثلاثين عاماً ـ هو نبيذ ثقيل، في حين لم يكن ثمة وقت للنبيذ على الدوام. «فهذه الأماكن، والغابات، ومنطقة الفولغا كلها، أعرفها حقَّ المعرفة»...

في الشمس، من خضرة أشجار القيقب وكروم العنب، يكون الضوء مخضراً، والهواء أكثر سلاسة، ـ قال نيكولييف: في الضوء الأخضر أصبحت العروق الزرقاء في بياض عَيْنَي إيرينا خضراء، وحَدَقَتَيْها تسقطان في هاوية ـ وبدا أنَّ من عينيها تفوح رائحة الجلد المدبوغ. ـ دخل المكتب ثلاثة أشخاص: رجل وامرأة وصبي مراهق. قال الرجل بريبة:

ـ يشرفني الظهور، الحرّاج الثاني بعد كوزيا، من المخفر الحادي عشر. أنا، يغور نيفيدوف، وهذه زوجتي كاتيا. وهذا ـ ابننا فاسياتكا.

قاطعت الحرَّاجَ زوجتُه، وبدأت تتحدث بنبرة المظلوم: «أنت، أيها السيد، قلتَ لكوزيا إنك تريد أنْ تأكل مع ماریاشكا. افعل ما تريد. والأمر لك، يا سيد، ولكن، ربما، إنَّ الشاي عندنا ليس أسوأ من شاي ماریاشكا. نحن نبني كوخاً، زوجي ضعيف، لديه التهاب، وإننا قدمنا من كادوم. ـ كما يحلو لك، الأمر لك، يا سيد. بعد كل شيء، ماریاشكا لديها ثلاثة صغار، طفل أصغر من الطفل الآخر، أما نحن، فكلنا ثلاثة فقط». أطبقَت كاتيا شفتيها، ووضعت يديها على وركيها، وجعلت تترقَّب وتنظر نظرة مشبَّعَة بروح العِداء. صافح نيكولييف الجميع بصمت، ثم قال: «انصرفوا بحفظ الله، سوف أعرف». ـ لاحظت إيرينا أرسينييفا في الشمس: الجلد الأزرق المحلوق في وجنات وذقن نيكولييف صلباً وقوياً.

قالت إيرينا بهدوء ومرارة:

ـ أنت تعلم، متى يكون طقس «فلازيني»، و«فلازيني» هذه تُطلق على الحفل الذي يُقام بمناسبة الانتقال إلى المنزل الجديد ـ فبعد كل شيء، الفلاحون في بلدنا حتى الآن يتركون الديك والقط يسيران في الأمام، ثم يمشي الناس بعدهما، وكذلك ينبغي (حسب الاعتقاد التقليدي) الدخول ليلاً عندما يكتمل البدر. وفي الليل كذلك، يقودون الماشية. وقبل فجر

تلك الليلة، تركض ربة المنزل حول الدار عارية ثلاث مرات. وهذا كله يُفعَل من أجل عفريت المنزل...

(1) فيرست: وحدة قياس روسية قديمة كانت تستخدم لقياس الأطوال. يتم تعريفها باعتبارها تساوي 500 قامة (ساجين)، القامة تعادل (2,13 م)، مما يجعل الفيرست يساوي 1.0668 كيلومتراً. (المترجم).

(2) الساموغون: مشروب كحولي قوي يُصنع في المنزل عن طريق التقطير من خلال أجهزة منزلية الصنع أو مصنوعة في المصنع من مواد مخمَّرة (مهروسة) يُحصَل عليها نتيجة تخمير شراب السكر أو الحبوب المحلاة بالسكر أو البطاطس أو الفواكه أو غيرها من المنتجات التي تحتوي على السكر ومواد النشا السكرية. (المترجم).

(3) الترويكا عربة خفيفة تجرها ثلاثة جياد. (المترجم).

(4) يقصد الكاتب ألمان روسيا الذين استوطنوا حوض نهر الفولغا. (المترجم).

(5) الجيمنازيا ـ مدرسة ثانوية تولي عناية خاصة بالعلوم الإنسانية واللغات الميتة (اللاتينية واليونانية القديمة). (المترجم).

الفصل الأول: الليالي والأيام

إنْ تسأل مارياشكا وكاتياشا وكوزيا ويغور عن الغابة ـ سيخبرونك.

ـ في الغابات على طول الأراضي المهجورة والخالية وفي القرى والبلدات المحاذية للغابات الكثيفة، يعيش عفريت الغابة ـ الشبح. تنتصب الغابات المظلمة من الأرض إلى السماء، ـ وستسمع الكثير جداً من حقائق مارياشكا المحتمَلة. ـ تقف الغابات الزرقاء كالجدار المنيع. ولا يستطيع الإنسان أنْ يشق طريقه عبر القرى المحاذية للغابات إلا بصعوبة، وفي الأجمة الكثيفة يتجمد كل شيء ويخمد. هناك، بجانب الأغصان الفتية، تنتصب أشجار البلوط والتنوب اليابسة، حتى تسقط على الأرض، فتخمد وتتغطّى بطبقة من الطحالب الشبيهة بديباج التوابيت. وفي أوقات الظهيرة في شهر تموز (يوليو) يكون الجو هناك قاتماً ورطباً. هناك، حتى الطائر نادراً ما يزعق، ـ وإذا ما هبَّت الريح من السهوب، فإن أشجار البلوط القديمة تفرك بعضها بعضاً، وتطلِق صريراً، وتهيل الأغصان المتعفّنة، وتنثر البقايا المنخورة. يشعر كوزيا ومارياشكا وكاتياشا ويغور هنا بالرعب وبالضآلة وبالوحدة وبالعجز، وتسري القشعريرة على ظهورهم. لقد استوطن هذا الشيطان، الذي يُدعى الشبح، منذ سالف الأزمان في هذه الغابات الكثيفة، حتى أنَّ كوزيا تحدث عن رؤية الشيطان: يتمنطق وشاحاً أحمر، الطرف الأيسر من قفطانه ملفوف على اليمين وليس على اليسار؛ وينتعل فردة الحذاء اليسرى على القدم اليمنى، والفردة اليمنى على القدم اليسرى؛ وعيناه متوهجتان مثل الجمر، وهو نفسه يتكون كله من الطحالب وأكواز التنوب؛ ويمكنك رؤية الشبح إذا ما نظرت من خلال أذن الحصان اليمنى.

كان البيت الأبيض في الوهدة بالقرب من جبل ميدينسكايا هادئاً لعدة أيام، في المساحات الخضراء، بارداً مثل البركة. في الليل، كان يجنّ جنون المنزل: عَيْنا نيكوليف المتوترتان تقعان على الأثاث المحطم، وأغلفة الكتب الممزَّقة، وكل أنواع الهراء. وجد نيكوليف في القمامة على الشرفة ساعة رملية، ـ يتدفق الرمل من قارورة زجاجية إلى أخرى كل خمس

دقائق، في الليالي المقمرة، كان زجاج القارورتَين المائل إلى الخُضرة يلمع؛ في النهار ينسى نيكوليف أمر هذه الساعة الرملية، ولكنه في الليل يضيِّع عليها الكثير من خمسات الدقائق؛ أحبَّ نيكوليف أن يكون من دون حمقى، ولم يلاحظ أنَّ لديه (إلى جانب الوعي والإرادة) كل حفيف في المنزل، وكل ركض غبيّ من فأر ـ يغطي ظهره بقشعريرة. وقد اعتاد على عدم النوم في الليل، إذ لم يتركه النشاط أبداً، كان يُخَيَّل إليه أنَّ أحداً ما موجود إلى جواره، وبدت كل ليلة له مثل سواها من الليالي.

كان القمر طالعاً، فتموَّجت تحت الجبل مئات الأقمار متكسّرةً على الماء. كان المنزل صامتاً، وانتصبت الأشجار القريبة من المنزل فضية على ضوء القمر، وعمَّ المكان صمتٌ لا يُسمع فيه سوى نعيق البوم. سقط ضوء القمر على الباركيه في الصالة على شكل غضون... كان نيكوليف قد أغلقَ النوافذ بدقة، ولكن لم يكن ثمة زجاج في النوافذ. وأبواب القاعة الثلاثة أغلقها بقطَعِ أثاثٍ بالية دفعها بخشبة. كانت ثمة أريكة بجوار أحد الأبواب، وكان نيكوليف مستلقياً عليها. وعلى كرسي بجانبه علق مسدس في قراب مفكوك، وأُسنِدَت بندقية عند أسفل الأريكة. على الأريكة، كان يستلقي ذلك الجسد الجميل، الصحي، الكبير، الذي تغشاه القشعريرة بغباء من كل حفيف. عرف نيكوليف بهدوء أنَّ كاندين وكونكوف الحرفيَّين، كانا يحرسان الغابة بالقرب من إيفوفوي كليوتش، وهما شابّان قويّان، ولا يخطئان. ولا يمكن للمرء أنْ يجتاز الجبال سيراً على الأقدام، ناهيك عن أن يسير بعربة، ولكن إذا ما شقا طريقهما إلى هنا، فعند ذلك من خلال الباب السري الذي تركه الأمير الإقطاعي والذي عُثِرَ عليه بالصدفة، ـ فسوف يمكن المرور إلى السرداب، ومن هناك تحت الأرض إلى الوادي، وهناك ـ لو بحث المرء، فسيجد الثقب!... المصباح مشتعل للتمويه، في الجناح الأيمن من المنزل، الذي كانت النوافذ فيه مُغَطّاة بعناية. أطلَّ القمر على النوافذ، في المنزل الذي تحطم كل شيء فيه. نهض نيكوليف من الأريكة، وأخذ المسدس، وأزاح الوتد عن الباب وسار عبر الغرف المظلمة، ولا يزال متردداً، لأنه لم يَعتَد على المنزل جيداً؛ وفي المطبخ شرب الماء من دلو ثم عاد؛ وتنصَّتَ عند باب منزل، من دون أن يلاحظ أنَّ جسده أخذته القشعريرة، وأسند غلق الباب بالوتد ـ وسرعان ما فتح القفل ومرة أخرى: عندما أخذ الدلو،

وضع المسدس على حافة النافذة، ونسيه، فعاد على عجل. كانت الساعة الرملية موضوعة على النافذة في الصالة تحت ضوء القمر المغبر، ـ بدأ نيكولييف يقلّب الرمل فيها، وأحنى رأسه المجعد إلى القارورتين الزجاجيتَين المعتَمَتَين.

وبعد ذلك ـ فجأة طُرِقَت النافذة التي كان فيها المصباح، ـ نادى صوت بتردد: «يا هذا، مَن هناك، تعالَ. الشرطي يناديك!» التقط نيكولييف البندقية بسرعة، ونظر بصمت من النافذة المكسورة: فرأى على القمر صبياً يقف بالقرب من المنزل وفي يديه خطّاف، ينظر مِن حوله، في صمت. قال نيكولييف بهدوء: «مَن أنت؟» قال الصبي بفرح: «تعالَ، الشرطي يريدك!» ـ «لماذا تحمل خطّافاً؟» ـ «إنّي أحمله خوفاً من الكلاب. ألا توجد كلاب هنا؟ الشرطي على الشاطئ، في القارب!».

نزل الصبي وكوزيا ونيكولييف (هذان يحملان بنادق) على الجرف إلى نهر الفولغا. كانت تقف عند الشاطئ ثلاثة زوارق. كان شرطي يسير على الشاطئ وفي يديه مسدس وسيف، وبندقية معلَّقة على كتفيه. صاح الشرطي:

ـ اللعنة، ما هذا، هل تنام والغابة تُسرق؟! كنتُ ذاهباً للقبض على صانعي الساموغون، أمسكت بزورقَين لصانِعي الساموغون، كنتُ أبحث عنهم مدة ثلاثة أيام، لم أنم، والآن أقود الزورق من جانب جبل موكرايا غوريا، ورأيتُ جذوع الأشجار تندفع من قمة الجبل إلى الأسفل، ـ لصوص الأخشاب يعملون، وأنت نائم! كنت سأقبض بنفسي على لصوص الأخشاب، ولكن كما ترى، ليس لدي سوى شاهدين اثنين، والبقية من صانعي الساموغون المتلبسين ـ إذا غادرتُ ـ فسوف يهربون. إنّي أنقل أربعين دلواً من الساموغون، لم أنم منذ ثلاثة أيام... لذا فإنهم سوف يقفزون مباشرة من القمة، وهناك زورقان فارغان يطفوان على الماء!

صعد الشرطي إلى القارب، وأعطى أوامره لمصنِّعي الساموغون، ـ فراح الرجال يدفعون القارب، وسحبوا قافلة الزوارق بالحبل، بصمت. كان الشرطي يصيح ويلوّح بفوَّهة ماسورة

مسدسه. والقمر يضيء بصمت، وكانت مئات الأقمار تنفلق في الماء. وظلت الجبال ونهر الفولغا صامتين. ثم اختفت الزوارق خلف اللسان الرملي.

أحضر كوزيا حصانين، أحدهما شُدَّ عليه السرج والآخر وضِعَ على ظهره كيس من القش.

سار كوزيا ونيكوليف على الدروب الضيّقة بالغابات، وفي الجبال بصمت، وبندقيتَيهما على عاتقيهما، واندفعا إلى جبل موكرايا بالكا، ثم اتجها إلى نهر الفولغا.

لا شيء سوى نهر الفولغا، والجبال، والصمت... نعقَت بومة، وانهار الحصى تحت أقدامهما، وفاحت رائحة الشيح من مكان ما... صمتٌ... قرقعَت شجرةٌ على الجبل، وسقطت من قمة الجبل، وتدحرجت إلى الأسفل تحت الجرف، وجرت الحجارة خلفها. ذهب كوزيا ونيكوليف تحت المنحدَر ـ كان زورقان في الصفصاف النابت على الشاطئ، أحد الزورَقَين مليء بجذوع الأشجار. ثم سقط جذع شجرة آخر من القمة، ـ وعلى الفور صفَّرَ رجل في مكان قريب على بعد عشر خطوات منهما صفيراً منخفضاً، فصفَّرَ الآخر على الجبل، وصفَّرَ الثالث ـ ثمّ تجمد العالم. وبعد ذلك اندلعت رصاصة من بندقية على الجبل. جلس كوزيا خلف صخرة، ـ فدفعه نيكوليف إلى الأمام بركبته، وأدار قفل البندقية وانطلق بسرعة إلى الزورقَين، دفع الزورق الفارغ إلى الماء وانحنى ليدفع الزورق المُحَمَّل ـ أُطلِقَت النار من بندقية من الأعلى، فسقطت الرصاصة في الماء. «يا كوزيا!! انطلق، ادفع!» ومضت نار حمراء على الانحدار العمودي في الأعلى، وانفلقت إطلاقة، فأزَّت رصاصة. أطلق نيكوليف إطلاقةً على مصدر النار في الحال، فصاح أحدهم من الجبل: «إيه، ماذا تفعل، أيها العفريت! لا تلمس الزوارق!».

قال نيكوليف:

ـ يا كوزيا، ثبِّت حبل الرسو، وادفِعْ بالمجذاف، اذهب إلى عجلة القيادة، انطلق مبتعِداً عن الشاطئ، وإلا فسوف يطلقون النار ويصيبوننا!

تدفّق انعكاس القمر من المجذاف. وصاح أحدهم من الشاطئ: «أيها السيد، يا عزيزي، أرجوك من أجل المسيح، أعد القوارب!».

قال نيكولييف:

ـ آه، اللعنة، وكأنما لم تُسرَق الخيول!

أجاب كوزيا:

ـ لماذا، سنأخذها الآن. لم يعد ثمة ما يثير الخوف. الرجل خمدَ، استولى عليه الفزع.

طافا بالزورق نحو جبل موكرايا بالكا. اقترب من الزورق ثلاثة رجال ـ من قرية فيازوفي، يبكون، أحدهم يحمل بندقية ـ توسل من أجل أنْ يأخذ الزوارق. صمتَ نيكولييف، وأشاح ببصره جانباً. كوزيا أيضاً ذهب بصمت إلى الوهدة، واقتاد الخيول، ثم قال بدقة:

ـ لكي تسرقوا الغابة، أيها الأوغاد!؟ اجلس في الزورق، أنتم رهن الاعتقال! هناك، سوف يتحققون من كيفية سرقة الغابات!...

جثا الرجال على ركبهم. فهمس نيكولييف مستاءً:

ـ من أجل أيّ شيء نأخذهم؟ وإلى أين نقتادهم؟

ـ لا شيء، لا يضر أنْ نخيفهم.

سارت الخيول ببطء فوق الحصى على طول الضفة. كان الصمت يسود الجبال ونهر الفولغا، لكن القمر لم يعد موجوداً: خلف نهر الفولغا في أوسع المساحات اكتست السماء باللون الأحمر الذي تكتسي به قبل النهار، وبرد الجوّ عند الفجر، وغطّى الندى الأرضَ والحشائش.

سأل كوزيا:

ـ ألا تريد أن أقصَّ عليك حكاية؟

اقتادا الزورقَين مع الأخشاب إلى خلف اللسان الرملي في النهر قرب جبل ميدينسكايا، وربطاهما بإحكام. ـ (بعد يومين ـ في الليل ـ اختفى هذان الزورقان، فقد سرقهما شخص ما)...

ومرة أخرى طُرِقَت النوافذ في الليل. «يا أنطون إيفانوفيتش، أيها الرفيق حارس الغابة، يا نيكولييف، انهض بسرعة!» ـ وبدأ المنزل يصخب بالطقطقة والخشخشة والهمس، وهزَّت الشموع والولاعات السقوف ـ «أقول لك، لأنك شيوعي، إنَّ القرويين من كادوم، في قرية كراسني لوغ، ذهبوا جميعاً مع الكاهن لقطع الحطب ـ وقد انتشر الخبر في جميع المخافر، وقُبِضَ على الحطاب إليوخين وقُيِّد، وأُرسِلَ إلى التوقيف!»

في فناء الخيل، مقابل كوخ سكن الخدم، وقفت خيول تكسوها رغوة من العَرَق، وتنبعث منها رائحة عَرَق الخيل القوية (هذه الرائحة أحبَّها نيكولييف منذ الطفولة)... كان نجم يلمع على قمة الجبل (يا ترى، ما هو من النجوم؟) وتوهَّجت يراعة مضيئة بالجوار تحت شجرة قريبة. قاد كوزيا الخيول، لكنه لم يحصل على حصان وركض على الأقدام.

ـ يا يغور، ضع البندقية في هذا الوقت على الحصان، ما الفائدة من جرها؟

ساروا على الخيول وبسرعة في الجبال، وفي الغابة، ـ «آه، يا للشيطان! لقد نَمَت كل أنواع الأدغال! يكاد المرء يفقس عينه!».

انتصبت الغابة سوداء، صامتة... على قمم الجبال، الهواء جاف، مغبر، تنبعث منه رائحة العشب الذابل، وفي الوهاد الجو رطب وبارد، وتكلكل الضباب... في الوهاد تزعق بعض الطيور غير المألوفة ـ («آه، ما أجمل ليالي نهر الفولغا!»). رائحة عرق الخيل تفوح بشدة، والخيل تعرف الطريق.

ـ آه، يا له من وغد، هو والفلاحون. فبعد كل شيء، لن ينتفعوا كثيراً لأنهم سوف يقعون ويسحقون! الفلاح لا يشعر بالواجب! الفلاحون قيَّدوا إليوخين كما يُربَط اللص، ونقلوه إلى القرية، وحبسوا زوجته وأولاده في كوخ حراسة الغابة، وجعلوا عليهم حارساً... زحف ابنه فانياتكا إلى القبو، وهناك كان كلب قد حفر وجاراً، فخرج من خلال الوجار إلى الفناء، ومن ثم إلى قرية كونكوفو. ولولا ذلك لما عرف بقصتهم أحدٌ. لذا احذر في كل ليلة!

لحق كوزيا الخيّالة، ركض هرولة، وقال ليغور:

ـ يا يغوروشكا (يغور)، أنت الآن اركض، وسوف أركبُ أنا، لأرتاح قليلاً.

نزل يغور من حصانه وركض خلف الخيّالة. عجن كوزيا الكيس براحة أكبر على الحصان، وجلس، والتقط أنفاسه، ثم قال بمرح:

ـ الآن فقط ليتنا نضُجّ ضجيج جوقة مثل اللصوص! ـ وصفّر في ظلمة الغابة صفيراً طويلاً كصفير اللصوص: طائر كبير يرفرف بجناحيه في مكان قريب في الظلام.

... على أطراف قرية كراسنايا لوغا، استلقى حراس الغابة على شكل حلقة صغيرة منذ المساء... يقود الطريق إلى الجدار الأخضر للغابة، إلى مساحات مقطوعة من الأشجار في وسط الغابات، وإلى وهدة بين الجبال. كان كل شيء في غاية البساطة. لقد غربت الشمس خلف السهوب؛ وغادرت تلك الدقيقة التي تهدأ فيها، خلال دقيقة، الأشجار والعشب والأرض والسماء والطيور ـ في صمت، وتمتد خطوط زرقاء على الأرض؛ طارت بومة من عمق الغابة إلى طرف الغابة، طارت بصمت، ثم زعق في الغابة طائر ليلي غير معروف. وبعد ذلك، بعيداً في السهوب، على الممر الجبلي الضيق، بانَ رتل قافلة فلاحين في الغبار. لكن الليل غطى عليه، وبعد ساعة فقط وصل صرير وقعقعة العربات الخشبية الروسية إلى حافة الغابة. ثم استقر في الغابة الغبار وصرير العجلات وقعقعة الإطارات وصهيل الخيول وهمسات الرجال وصراخ طفل رضيع ـ وقفوا بالجوار، ونظروا إلى الغابة. كانت شجرتان من أشجار البلوط القديمة تنتصبان عند الطريق الترابي المؤدي إلى ممر الغابة الخالي من

الأشجار؛ كانت الشجرتان قد قُطِعَتا من عند الجذر، لا يتطلّب الأمر سوى أنْ يُدفَعا حتى تسقطان وتقعان وتسدان الطريق.

ثم تناهت من الظلام صرخة مروّض الخيل:

ـ اسمع! يا أبناء مدينة كادوم! يا رجال! لا ينبغي التصرّف بهذا الشكل، عودوا مِن حيث أتيتم!

وبعد ذلك، هدَرَ من القافلة على الفور مائة صوت يصرخون ويضحكون، الكلمات لا يمكن فهمها، ولم يكن من الواضح: ما إذا كان الناس يصرخون أو الخيول تصهِل، والناس ينادون في صياح على بعضهم البعض؛ واستمرَّت القافلة تزحف أبعد وأبعد. ثم نهض اثنان متهوران، حرفيان من عمال المصانع، شيوعيان، هما كاندين وكونكوف ـ بالجهد الأخير والشجاعة والبراعة ـ وأسقطا على الطريق جرنَين من أخشاب أشجار البلوط القديمة، وأطلقا بتشنّجٍ طلقتين نحو السماء. من معسكر الفلاحين انطلقَت، بلا معنى عبر الغابة، طَلقات المسدسات وبنادق الرصاص وبنادق الخراطيش. وقف نصف القافلة، فارتَدَّت الخيول إلى مؤخِّرات العربات. ـ «استَدِر!» ـ «ارجع إلى الخلف!» ـ «اطلِق النار!» ـ «أيها الأعزاء، لقد سحقتم امرأة!» ـ «القس، القس، امسكوا القس!»... الغابة مظلمة وغير مفهومة... لا يمكنك أنْ تجعل الحصان يستدير في الممر الخالي من الأشجار، الخيول تتجنَّب الأشجار، وتجفل من الطلقات... عرائش العربات تستند على جذوع الأشجار، العجلات تتكسر على الجذامير. ـ «الحصان، الحصان لا تنهكوا قواه! سوف تكسر النير، أيها الوغد!» ـ ليس واضحاً مَن يطلق النار ولماذا؟

بحلول الفجر، وصل نيكولييف على الحصان. واشتعلت نار على طرف الغابة. كان حراس الغابة يجلسون بجوار النار، وكان اثنان منهم يغنيان أغنية ذات إيقاع بطيء. كانت كومة من البنادق مُبَعثَرَة حول النار. وفي المرج، وقفت العربات والخيول مُنَكَّسَة. وكان الرجال والنساء والمراهقون والكاهن يقفون جانباً محتَجَزين. انبلج الفجر فوق الغابة. لقد كان

مشهد لمعسكر وحشي غير سارٍّ. خرج كاندين للقاء نيكولييف، وكان قد جاء معه لحماية الغابات، وأخذه جانباً، وتحدث همساً وعلى نحو حزين:

ـ اتضح أنَّ هذا هراء. أنت تفهم، لقد أغلقنا الطريق، وأسقطنا شجرتين من خشب البلوط، واعتقدنا أنَّ بالإمكان احتجاز خمس عربات تقريباً، وفصلناها بجذوع البلوط. ومن أجل التحذير، أطلقتُ النار. ثم بعد ذلك لم نطلق طلقة واحدة. الفلاحون أنفسهم أطلقوا النار، وقتلوا صبياً وحصاناً، وأصابوا فرَساً. عندما بدأ هذا الهراء، فكرت أنْ أغادر سليماً معافى، لكي يتصرف الرجال بالأمر بمفردهم، وحتى لا نترك خلفنا أيَّ دليل، ولكن بعد ذلك لم يعد من الممكن كبح جماح رجالنا، فبدؤوا يقبضون عليهم، واعتقلوهم، وأخذوا الأسلحة...

كان نيكولييف يحمل في يده مسدساً، قال في ذهول:

ـ أفٍّ لك، أيها الشيطان، أيّ هراء هذا!

هبَّ الفلاحون إلى نيكولييف، وجثوا عند قدميه، وتوسلوا إليه:

ـ أيها السيد، أيها المعيل، يا عزيزنا! أطلق سراحنا من أجل المسيح. لن نعيدها أبداً مرة أخرى، لقد تعلمنا من التجربة المريرة!

صرخ نيكولييف بحنق وبذهول:

ـ انهضوا على الفور! اللعنة عليكم أيها الرفاق! لقد قلتُ لكم بلسان روسي مُبين ـ لن أدعكم تسرقون الغابات، مهما كلَّف الأمر! وها أنتم، قتلتم رجلاً هنا، آه!... أين الصبي الصغير؟... لقد أتلفتم عربات القرية كلها، آه منكم!

ـ دعنا نذهب من أجل المسيح! لن نعيد ذلك أبداً مرة أخرى!...

ـ اذهبوا، ولكن اعلموا أنكم لن تعيدوا بهذا الفعل الحياةَ للرجل. افهموا، رجاءً من أجل المسيح، إنني أريد أن أتصرف معكم بروح رفاقية! (وقال بحنق) وإذا دعاني أحدكم بكلمة

«أيها السيد» حتى ولو مرة أو نزع القبعة من رأسه بحضوري، فسوف أعدمه رمياً بالرصاص! اذهبوا، رجاءً، إلى حيث ما تريدون.

وجَّه كونكوف، الشيوعي، الذي جاء مع نيكولييف ليحرس الغابات، سؤالاً لنيكولييف بخبث:

ـ وماذا عن القس؟!

ـ ماذا بالقس؟

ـ لا ينبغي ترك القس ينصرف! هذا الوغد يجب إرساله له إلى دائرة الأمن السياسي في المحافظة!

فقال نيكولييف بلا مبالاة:

ـ لا بأس، أرسله!

ـ حتى يُعدَم هذا النذل هناك رمياً بالرصاص!

أشرقت الشمس فوق الأشجار، وكان صباحاً مباركاً، وكان مشهد المعسكر البري كئيباً.

ومرة أخرى حلَّ الليل. وحلَّ الصمت في المنزل. ذهب نيكولييف إلى النافذة، ووقف ينظر في الظلام. ثم في مكان قريب في الأدغال ـ رأى نيكولييف ـ اندلع ضوء بندقية، وانطلقت إطلاقة ووقعت رصاصة بدقة في السقف، فانهال الجص. لقد أطلقَت النار على نيكولييف.

ثم حلَّ صباح مشمس بهيج، كان نهار يوم الأحد. وكان نيكولييف جالساً في المكتب. أُحضِر اثنان من مصَنِّعي الساموغون. حمل يغور وعاء الساموغون على ظهره. ووصل تسيبين من قرية فيازوفي، وسلم ورقة من مجلس القرية، «بخصوص الموقف من مسألة تسوية الغابات، ينبغي على الرفيق نيكولييف الحضور على الفور». لقد انتُخِبَ تسيبين رئيساً

لمجلس القرية. فذهب نيكوليف، وركب عبر السهوب، وكان يستمع إلى أصوات سناجب الأرض؛ تحدث تسيبين عن الصيد، وكان هادئاً، متمهّلاً، وعملياً. وبعد ذلك، عندما يتذكر نيكولييف ذلك اليوم، يعلم أنه كان أفظع يوم في حياته، وحتى أفظع من موت الاقتصاص العرفي الرهيب، عندما كاد يُمَزَّق إلى أشلاء، وعندما كاد يُقطَع رأسه ويداه ورجلاه، ـ ولكن أنقذته ببساطة حادثة غبية ـ غباء بشري. كانت سناجب الأرض تُصَأصئ في السهوب على نحو خانق. وفي القرية، في الساحة أمام الكنيسة وأمام المجلس، تجمهر الأولاد والبنات، وكان ثمة صبي، حافي القدمين لكنه يمسك بمهمازين(6)، يجلس متحمساً بغيظ؛ أدهشَ المهمازان نيكولييف، ـ فنزل من العربة ليتفحصهما بعناية: أجَل، إنهما مهمازان على كعبين حافيين، ولكن وجه الولد ليس غبياً. كان الرجال في مجلس القرية ينتظرون نيكولييف. كانوا سكارى. والمكان في المجلس خانق. عندما دخل نيكولييف ساد الصمت في المجلس. لم يسمع نيكولييف حتى طنين الذباب. مشى تسيبين معه إلى الطاولة، ورأى نيكولييف أنَّ وجه تسيبين، الذي كان متمهلاً ومسالماً طوال الطريق، أصبح ماكراً وحاقداً. وبدأ تسيبين يتكلم:

ـ ماذا هناك، أيها الرجال! الاجتماع مفتوح! ها هو قد جاء! وهو أيضاً شيوعي! دعوه يقول، ما يعرف...

تحسَّسَ نيكولييف من المسدس في جيبه، وتذكَّر المهمازَين. لقد شوَّشَ المهمازان على أفكاره. راح نيكولييف يتكلم:

ـ ما الأمر، أيها الرفاق؟ طلبتم مني أنْ أقدم تقريراً...

ـ الغابات الآن ملكنا، ونرغب أنْ نقسّمها وفق القانون حسب النسمات!...

قاطعوه:

ـ حسب الحيازة!

صاح أحدهم:

ـ كلا، حسب النسمات!

ـ لا، حسب الحيازة!

ـ لا، قلتُ، حسب النسمات!

ـ ماذا نقول له، يا رجال! ردَّ كيد الحرّاج إلى نحره.

صاح نيكولييف:

ـ أيها الرفاق! لقد طلبتم مني أنْ أُقَدِّمَ تقريراً... أرضنا أرض سهوب، ولدينا القليل من الغابات. لدينا، يا رفاق، حرب أهلية، هل تريدون أنْ تكونوا إقطاعيين، من ملاكي الأراضي؟! إذا ما قُطعَت كل الغابات، فلن تصلحها خلال أربعين عاماً. يجب قطع الغابات بشكل صحيح، وحسب الخطة. نحن، أيها الرفاق، في حالة حرب أهلية، والفحم مقطوع عنا. هذه الغابات مُلك للجنوب الشرقي من روسيا بأكمله. هل تريدون أنْ تكونوا ملاكين، إقطاعيين؟! لن أسمح لكم بسرقة الغابات....

ـ يا رجال! الآن كل شيء ملكنا! دعوه يجيب لماذا بإمكان أهالي كادوم أن يسرقوا الأخشاب، ولكن لا يجوز لنا؟! من أين أتى ومَن سلَّطه على رقابنا؟!

ـ نريد أنْ ننتخب حارس غابة من بيننا!

ـ لنرد كيده، يا رجال، إلى نحره، ونحكمه بحكمه!

بقي نيكولييف يتذكَّر إلى الأبد تلك العيون المتوحشة، الثملة، التي نظرت إليه بغيظٍ وكراهية. أدرك حينها كيف تفوح من الحشد رائحة الدم برغم عدم وجود الدم... صرخ نيكولييف بمرح تقريباً:

ـ أيها الرفاق، إلى الجحيم، لن أسمح لأحد أنْ يمسَّني... ها هو المسدس، سأُردي أول ستة صرعى، وبعد ذلك سأقتل نفسي!

سحب نيكولييف الطاولة إليه، ووقف في الزاوية خلف الطاولة والمسدس في يده. اندفع الحشد إلى الطاولة.

صاح تسيبين:

ـ يا مينكا، اركض واجلب لي البندقية، لنرى مَن يطلق النار على مَن!

ـ أطلق النار عليه، يا تسيبين، احكمه بحكمه.

صاح نيكولييف:

ـ أيها الرفاق، اللعنة، دعوني أتحدث!

وافق الحشد:

ـ دعه يتكلم!

ـ ماذا حلَّ بكم، هل أنتم أعداء أنفسكم؟ ها أنا ذا سأحكي لكم. دعونا نتناقش بوضوح وكما ينبغي، لو قتلتموني، ماذا ستستفيدون؟... اجلسوا في أماكنكم، وأنا سأجلس، ولنتحدث...

تحدث نيكولييف في ذلك اليوم عن كل شيء ـ عن الغابات وعن مزارع الأشجار وعن الشيوعيين وعن موسكو وعن بروكسل، وعن كيفية بناء القاطرات، وعن لينين، ـ تحدث عن كل شيء، لأنه عندما كان يتحدث، يهدأ الفلاحون، ولكن بمجرد أن يصمت، يبدأ الفلاحون بالصراخ عن ضرورة ردّ كيده إلى نحره والحكم عليه وفق حكمه! فبدأ رأس نيكولييف يدور من رائحة الدم. كان تسيبين يقف منذ مدة طويلة عند عتبة الباب والبندقية بيده. أفسحَ النهار المجال لغسق طيور السنونو. غادر الرجال، وعادوا مرة أخرى.

ثملَ الحشدُ. فعلم نيكوليف أنه لا مناص له، وأنه سيُقتل، وفي كثير من الأحيان، عندما جف حلقه، كان عليه أن يبذل جهوداً رهيبة لأن يحافظ على كبريائه، وألا يصرخ، وألا يسب الجميع، ولا ينهار ويستمر بالكلام. وأنْ يتكلم عن أي شيء يتبادر إلى ذهنه.

الصدفة وحدها أنقذت نيكوليف. فقد اقتحمت المنزلَ جماعة «اتحاد جنود الخطوط الأمامية»، وهم شباب سكارى إلى حدّ الثمالة، وفي غاية النشوة؛ صعد زعيمهم، الذي يجب أن يكون الرئيس، إلى الطاولة بالقرب من نيكوليف، وكان حافي القدمين، ولكن ينتعل مهمازين: نظر بازدراء على الحشد وتحدث بثقة بالنفس:

ـ أيها الشيوخ! لا يجوز لكم الحكم على الحراج (حارس الغابة)، الرفيق نيكوليف! نحن، جنود الخطوط الأمامية، من ينبغي لهم الحكم عليه. ها هو، ريبين يصرخ أكثر من الجميع، لكن هل جلس مع الحراج في البرد أم لا!؟ لا! وحدهم، أولئك الذين حضروا أثناء القطع يمكنهم الحكم، ومن لم يحضَر ـ لِينسحِب من هنا ويجلس في قارب خفيف. إنهم يريدون أنْ يأخذوا الغابة من دون أنْ يبذلوا جهداً! بما أننا حضرنا القطع في البرد، فإنَّ الغابات ملكنا، نحن في المقام الأول، ونحن مَن نحكم عليه. ونحكم على تسيبين معه، فهو مساعده الأول، وهو العفريت بعينه!

فسحَ غسق طيور السنونو المجال لليل الجنادب. كان الشاب مخموراً، ويقف إلى جانبه أصدقاؤه، سكارى أيضاً. ثم دوّى صراخ وصخب: «هيّا!» ـ «صحيح!» ـ «اضربهم!» ـ «أمسِك تسيبين، أمسك الشيطان العجوز!» ـ ثم بدأت مشاجرة وعربدة، فانهالت اللكمات على اللحى والخدود، وانتفخت الكدمات في كل جانب. ـ ونسوا أمر نيكوليف. فتحرك نيكوليف، ببطء شديد، كما لو كان ساكناً، بنصف خطوة، وتسلل إلى النافذة واندفع خارج النافذة مثل قطة سريعة. لم يركض نيكوليف أبداً بهذه السرعة والاندفاع والغباوة: لم يتذكر نيكوليف نفسه ويدرك حاله إلا عند الفجر، في السهوب، عند صأصأة السناجب الأرضية الخانقة...

(في مجلس القرية، بعد المشاجرة، لم يلاحظوا كيف اختفى نيكولييف، وفي ذلك المساء قالت الجدة غرونيا، زوجة الصياد ستاركوف، وفي الصباح، قالت العديد من النساء كذلك إنهن رأين بأعينهن: اختفى هنا، في هذا المكان، وتأكيداً على كونهنَّ لا يكذبن، قُلنَ إنهنَّ رأينَ كيف اسْوَدَّ نيكولييف وكان مرهَقاً، وعيناه مليئتان بالدم، والرغوة تخرج من فمه، ونمت أنياب في فمه، وصار نيكولييف أسود مثل التربة السوداء، ـ لقد أُنهِكَ ـ وسقط واختفى من خلال الأرض، إنه ساحر)...

وقد حدثت مع نيكولييف مثل هذه الحالة أيضاً. فمرة أخرى، مثل عشرات المرات، هرع حارس الغابة، وقال إنَّ الألمان عبر نهر الفولغا قد أبحروا على زوارق عريضة إلى الجزيرة الخضراء لقطع الحطب. فأبحر نيكولييف مع زملائه على زورقه لإنقاذ الغابات. كانت الجزيرة الخضراء كبيرة، فرسا رجال الغابات على الشاطئ ونزلوا من الزورق نزولاً غير محسوس ـ لقد كان نهاراً بهيجاً ـ وساروا إلى الألمان من أجل إقناعهم بالعدول عن فعلهم، لكن الألمان استقبلوا رجال الغابة بهجوم عسكري دقيق. أعطى نيكولييف الأمر بإطلاق النار. فرشقت بندقيةٌ رشاشةٌ من جهة الألمان، واندفع الألمان لمقابلتهم على شكل سلسلة أكثر تنظيماً، وتقدم الألمان وفقاً لجميع القواعد العسكرية. وسرعان ما بقي نيكولييف ومفرزته بدون خرطوشة وواجهوا معضلة ـ إما الاستسلام أو الهروب في الزورق، لكن الزورق كان هدفاً جيداً جداً للبندقية الرشاشة، ـ وأكد حراس الغابة أنه إذا غضب الألماني، فلن يندم على فعل أيّ شيء. وأخذهم الألمان أسرى. أطلق الألمان سراح الأسرى، لكنهم أخذوا معهم إلى ما وراء نهر الفولغا، بالإضافة إلى الأخشاب، الزورق ونيكولييف. ـ مكث نيكولييف مع الألمان في الأَسر مدة خمسة أيام. ولأسباب غير معروفة له، افتداه مجلس قرية فيازوفي برئاسة تسيبين (وجاء تسيبين شخصياً عبر نهر الفولغا بصفة رسول الهدنة). كانت باخرة الركاب لا تتوقف في هذه المنطقة بأكملها إلا في فيازوفي: أخبر فلاحو فيازوفي الألمان أنهم ـ إذا لم يطلقوا سراح نيكولييف ـ فلن يسمحوا للألمان بالدخول إلى جهتهم، وإذا ما قبضوا على ألماني، فإنهم سوف يقتلونه: والألمان كانوا

بحاجة إلى أن يرسلوا الزيت واللحوم والبيض في الباخرة، ولهذا أطلق الألمان سراح نيكولييف.

(6) المِهْماز: حديدةٌ في مؤَخَّر حذاء الفارس أَو الرائض، ينخس بها بطن الدابة حتى تسرع في المشي. (المترجم).

الفصل الثاني: ليالي وخطابات وقرارات

في المساء، جاء كاندين وأحضر أحد قاطعي الأشجار؛ وكان سارق الأشجار قد صعد شجرة، وكشط اللحاء منها، وسقط، فتعلَّق بالأغصان بحواشي حذائه اللباد، وعلق، ونزفت عيناه. أمر نيكوليف بالإفراج عن سارق الأشجار. فوقف الرجل في الظلام، ويداه على جانبيه، حافي القدمين، قال بهدوء:

ـ أريد مرشداً للطريق، يا سيدي الرفيق، ـ لقد سقطت عيناي.

انحنى نيكوليف إلى الفلاح، ورأى لحيته الكثيفة، وكان تجويفا عينيه الفارغان مشدودين؛ وكان الرجل يحمل قبعته في يديه، فشعر نيكوليف بالاشمئزاز واستدار ودخل المنزل... ـ

كان المنزل غريباً، وعدائياً: في هذا المنزل قُتِلَ الأمير، وفي هذا المنزل قُتِل سلفه (سلف نيكوليف): كان المنزل معادياً لهذه الغابات وللسهوب؛ وكان على نيكوليف أن يسكن هنا. ومرة أخرى كان القمر طالعاً، ومئات الأقمار تتكسَّر تحت الجبل على الماء. وقف نيكوليف عند النافذة، وجعل يقلِّب الساعة الرملية، ثم رمى الساعة بعيداً عنه، فانكسرت، وانهال الرمل...

عندما كان يحل وقت الفراغ، يصعد نيكوليف وحده إلى قمة جبل ميدينسكايا، ويشعل هناك، على الجرف الأجرد، ناراً، ويفكر، وهو جالس عند النار؛ من هناك كان يمكن له أن يرى نهر الفولغا ومنطقة ما وراء الفولغا على نطاق واسع، وهناك كانت تفوح رائحة الشيح المُرة. خرج نيكوليف من المنزل، وسار عبر المزرعة والمنزل ـ كانت مارياشا وكاتياشا جالستين على عتبة كوخ سكن الخدم، ويغور وكوزيا يجلسان على الأرض بالقرب منهما، وكان فلاح ضخم ذو أكتاف عريضة يجلس على كرسي، يرتدي قفطاناً وينتعل حذاءً من اللباد ولفافات ساق بيضاء لا تتلاءم مع الصيف... عاد نيكوليف من الجبل في وقت متأخر.

كانت السَّكينة تسود في كوخ سكن الخدم. تلألأ القمر على الروث أمام الكوخ. وارتفع خلف الكوخ، باتجاه الغابات، الجبلُ، الذي نبتت عليه بكثافة أشجار الجوز والقيقب... كانت ماريشا طوال الوقت تنصت إلى الجرس في حرش الجوز، حتى لا تذهب البقرة بعيداً. كان باب الكوخ مفتوحاً، وهناك يئن الرجل الذي فقد بصره. نهض كوزيا من على الجذع، واستلقى على الروث أمام عتبة الباب، وبدأ يواصل حكايته.

ـ... وهكذا، انطلقت أنوشكا بسرعة، إلى الكنيسة الثالثة، فالتقى بها الكاهن الثالث: ـ «كيت وكيت، مرحباً، يا أنوشكا، ـ ثم أخذها جانباً: ـ ألا ترغبين في قضاء بعض الوقت معي لوحدنا؟» ـ وهكذا لم تحضر أنوشكا إلى القداس، وعادت إلى المنزل وهي تبكي، كما يُقال، من العار. حتماً، لاحِظوا، أخبرت زوجها. فقال زوجها، إيليا إيفانوفيتش، وهو رجل عاقل: «اذهبي إلى الكنيسة، وانتظري حتى يخرج الكاهن من القداس وأخبريه الآن أن يأتي، في الساعة التاسعة والنصف. وقولي للكاهن الثاني، أنْ يأتي في الساعة العاشرة، والثالث ـ وهكذا دواليك. والتزمي الصمت». ذهبت أنوشكا، فخرج الكاهن من الكنيسة: «ها، ماذا عن الغسق، يا أنوشكا؟» ـ «تعال، يا أبانا، في المساء، في الساعة التاسعة والنصف، سيذهب زوجي إلى العرّاب، وسيسكر المخمور هناك». ثم التقاها القس الثاني: ـ «ها، يا أنوشكا، ماذا عن قضاء الليل؟» فقالت له، مثلما أمرها زوجها أنْ تقول، وهكذا... حلَّ المساء، ولا بدّ أنْ نقول، كان شتاءً قاسياً، صقيعَ عيد الغطاس. جاء الكاهن، فرتَّبَ لحيته، وصلَّب عند ركن الأيقونات، وأخرجَ من عبِّه، لاحِظوا، زجاجة فودكا، من نوع الرأس الأبيض. وقال لها: «هيّا، هاتي السماور(7) بسرعة، وسمكة الرنكة، حتى ننام». فقالت له: «ما هذا، يا أبانا، الليل طويل، سننام ما يكفي، لنتناول الشاي»، ـ ولكن كما يُقال، لا تجري الأمور دائماً كما يُرام. فما أنْ استرخى الكاهن، وجلس إلى جانب أنوشكا، ودسَّ يده في حضنها، حتى طُرِقَت النافذة. فهاجت أنوشكا: «يا للهول، ربما، زوجي!». فحاول الكاهن أنْ يحشر نفسه تحت الدكة، لكنه لم يندَسّ هناك، فبدأ يتأوّه، وشعر بالخوف. فقالت أنوشكا، كما أمرها زوجها: «آه، لا أعرف حتى أين أخفيك؟ هناك، في السقيفة، صنع زوجي صندوقاً جديداً، ادخل في الصندوق». اختبأ الكاهن الأول، وجاء الثاني مكانه، وأحضر الفودكا أيضاً، الرأس الأبيض.

وما أنْ دسَّ يده في عبّها، حتى طُرِقَت النافذة. فصار الكاهن الثاني في الصندوق فوق الكاهن الأول، ورقدا بعضهما على بعض، وجعلا يهمسان ويقرصان ويسبان بعضهما بعضاً. وعندما بدأ الكاهن الثالث في التأرجح ـ طُرقَت الباب الخارجية، وصرخ الزوج، مثل صراخ السكران: «يا زوجتي، افتحي!» وهكذا انتهى الأمر بالكهنة الثلاثة فوق بعضهم البعض. ودخل الكوخ الزوج، إيليا إيفانوفيتش، لاحِظوا، وسأل زوجته، همساً: «هل هم في الصندوق؟» فردَّت عليه أنوشكا: «في الصندوق!» وبعد ذلك، صاح الزوج، إيليا إيفانوفيتش، مثل السكران: «يا زوجتي، أريد أن أضع الصندوق الجديد في المخزن في الصقيع، كي أهيل فيه الشوفان!» وصعد إلى السقيفة. لاحِظوا، كيف قرر إيليا إيفانوفيتش، أن يحمل الكهنة إلى الصقيع، ويُغلِق عليهم المخزن، وسيتجمد الكهنة هناك في البرد لمدة يوم، سوف يؤثِّر البرد فيهم، وسوف ينتفض الكهنة، ويكسرون المخزن، ثم يركضون كالمجانين، وسوف تضحك عليهم القرية كلها. ومع ذلك، اتضح عكس ذلك تماماً، ولم يكن الأمر مُضحِكاً: لقد بدأ يسحب الصندوق من السقيفة، وكان الكهنة سِمان، يزن الواحد منهم تسعة بودات(8)، ـ لم يستطع إيليا إيفانوفيتش سحبه، فطار الصندوق إلى أسفل الدرج. وقع الصندوق بشدة لدرجة أنَّ رؤوس الكهنة جميعاً قُرِعت ببعضها البعض وماتوا على الفورا... نعم... ـ أخرج كوزيا كيس التبغ، وجلس القرفصاء، وبدأ يلفّ سيجارة ويُلصِق الورقة بلسانه بعناية، ـ واستعدّ للاستمرار في الحديث...

... صار القمر خلف الجبل. رنَّ جرس البقرة في مكان قريب، بهدوء، وكانت البقرة تجتر. مرَّ نيكولييف من جوارهم، وصعد إلى الجرف. صمتوا، فشيَّعوا نيكولييف بصمت بنظراتهم، حتى اختفى في الظلام. قال يغوروشكا همساً:

قالت غرونيا التي من فيازوفي، العجوز العرافة:

ـ رأيتُ أنطون يمشي! ذهب مرة أخرى، لقد ذهب. سوف يشعل ناراً... إنه ساحر وساحر. كنت أتجول، فشككت: في أنه سوف يكسِّر الخشب الجاف، ويشعل النار، ويستلقي بجانبها، ويسند خديه بيديه ويظل يحدق طويلاً في النار، وعيناه المرعبتان، والنظارات الموجودة

على أنفه، تتوهجان مثل الجمر، ـ ويبدأ يمضغ العشب... المنظر مرعب جداً!... وبعد ذلك سيقف وظهره إلى النار، عند الوادي الشديد، ويضع يديه للخلف ويقف، يقف، وينظر إلى ما وراء نهر الفولغا، إلى أنْ يتوقَّف فجأة. عندما رأيته هكذا، استولى عليَّ الخوف، فزحفت، وزحفت، إلى الممشى الخالي من الأشجار في الغابة، وعدت ركضاً إلى المنزل. ثم رأيته بعد ذلك، يسير إلى المنزل، وكأنَّ شيئاً لم يحدث.

قال كوزيا:

ـ وسوف يذهب إلى امرأته. سيأتي، ليتجول الآن في السهوب، وسيتمشيان وأيديهما مشبوكةً معاً. ولاحِظوا، كذلك، سوف يضرم النار... عندما ذهبا ذات مرة إلى الحرج، اختبأتُ، فجلسا ـ على بعد خطوتين مني، ليس بعيداً على الإطلاق، لم يكن ممكناً لي أن أتحرك، لكن البراغيش أحرقتني. راحا يتحدثان عن الكومونة، وتبادلا القُبُلات مرة واحدة، بنبل شديد، وقد اصطبرا على البرغش، لكنّي ليس لدي صبر، وكان لا بدّ لي أنْ أتحرك، فقلتُ: «المعذرة، يا أنطون إيفانوفيتش، أكلني البرغش!» فقفزَت، هي أمامه وقالت: «ما هذا؟» بغضب شديد. لم يقل لي، هو، أيَّ شيء، مهما كان...

قال الرجل العجوز الذي يرتدي القفطان:

ـ يجب أن أذهب، فالساعة متوقفة، سأذهب أنا، إلى اللقاء.

فتثاءبَت ماريشا وردّت عليه:

ـ إذاً، اذهب في أمان الله، فقد حان موعد النوم.

قدحَ كوزيا شرارة، وأشعل سيجارته من الصوفان، وبدأ يدخّن، فأضاء شاربه الذي يشبه شارب القط.

وسأل بصرامة:

ـ هكذا، إذاً، لا يمكن أبداً مساعدة الرجل، أقصد علاج عينيه؟ لا بالصلاة ولا بالتعويذة؟

فقال العجوز:

ـ لا توجد وسيلة لمساعدته، اقتلع عفريتٌ عينيه. ينبغي أنْ نضع فيها عشبة لسان الحمل حتى لا يتسرب مخه. إلى اللقاء!

ونهض الرجل العجوز، ومشى ببطء، والعصا في يده، نزولاً إلى نهر الفولغا، وأضاءت لفافات ساقيه البيضاء وحذاؤه اللباد من تحت القفطان.

صرخت كاتياشا على أثره: «يا أبي إيغنات، اسمع، تعال، ثوري متقرح العينين، داوِه!»

تحدث كوزيا بصوت كالغناء: «نعم، بالمناسبة، اتضح أنَّ إيليا إيفانوفيتش أراد أن يسخر من الكهنة، لكن اتضح العكس تماماً...».

قاطعَت كاتياشا كوزيا وقالت:

ـ أحضرتُ لكِ، يا مارياش، بيضات للسيد. بكم تبيعينها له؟

ـ خمسة وأربعون لكل واحدة.

ـ أخذتُها بعشرين من الألمان. سنتحاسب فيما بعد.

سأل كوزيا:

ـ ماذا لديكَ، يا يغوروشكا، من الحنطة؟

ـ ليس لدي أيّ حنطة، لقد أنفقنا كل شيء على الكوخ. الرجل لم يعد يأخذ الحطب، إنه يسرقه بنفسه. أعني الخبز ـ التبغ. هناك، كان أخي محظوظاً في المدينة، بصراحة، ابتسم له الحظ. جاء إليه عديله (زوج شقيقة زوجته) من المحطة، وقال: «هاك، هذه أربعون بوداً

من الحنطة، بِعها بدلاً عني في السوق، وسأجازيك على ذلك، ـ فأنا ليس لدي وقت للبيع». فوافق أخي، وباع الدقيق كله، ووضع المال في برميل، في حفرة، ـ ولم يبقَ سوى ثلاثة بودات. ثم أمسك رجال الشرطة به، أيْ بأخي. وتبيّنَ أنَّ الطحين مسروق من المحطة. فأخذوا أخي في البرد. ـ «أين كل الدقيق؟» ـ «لا أعرف». ـ «من أين حصلت على الطحين؟» «في السوق، ولا أتذكر مِن مَن». وهكذا ظلّ مصرّاً، ولم يَشِ بعديله؛ فأودعوه في السجن لمدة ثلاثة أسابيع، واستجوبوه طوال الوقت، ثم أطلقوا سراحه، بالطبع. وجاء إليه عديله يتمطى، فقال له: «آه، منك، أيها العاطل، يا ذيل الكلب، تتاجر بالمواد المسروقة؟! اجثِ عند قدمَيّ لأنّي ما وشيتُ بك!» ـ «وأين النقود؟» ـ «لقد أخذوا كل شيء، يا أخي، يجب أن نشكر الله على أنَّ جلدي بقي سالماً»... ـ خرج عديله، ولم يحصل على شيء، بل وحتى شكر شقيقي، وقدَّم له الساموغون... وذهب أخي بهذا المال، وجعل يتاجر به، وصار يسير في حذاء مطاطي، وهبطت السعادة عليه من السماء مباشرة، ـ صمتَ يغور قليلاً. ـ البيضات عندي في غطاء الرأس، ثماني بيضات ـ خذيها يا مرياش.

قال كوزيا:

ـ بالمناسبة، منذ أنْ وصل الحرّاج وهو يأكل الزبدة والبيض والخبز من دون أن ينظر إلى الوراء، أحضر كل شيء معه. إنه يلاحظ كل شيء، وينتبه إلى كل شيء، عيناه حادتان جداً.

قالت مارياشا بحماس:

ـ إنه يأكل كل شيء، القشطة الحامضية، والزبدة والبيض. إنه يعيش حياة السادة! لقد أحضر جريش الحنطة السوداء المقشورة، لم أرَ مثلها قَط، لا تُزرَع هنا عندنا. وقد طبختها، وسكبتُ منها لنفسي، وأكل منها الأولاد، إنها مثل السكر، لعقوا أصابعهم بعدها. ويأمر بغسل الملابس الداخلية بالصابون، يلبسها مدة أسبوع وينزعها، نظيفة تماماً، ورائحة الصابون فيها! وعندما أغسل الأواني، يقول: «اغسلوها بالصابون»، فقلتُ له: «الصابون عندنا يُعَد من الرجس!...».

في الكوخ طار دلو فجأة بخشخشة، فنقنقَ فرخ دجاجة مسحوق، وقوقأت دجاجة. وظهر رجل على عتبة الباب، كان ذلك هو الرجل الذي عميت عيناه. خرجَ ويداه ممدودتان إلى الأمام. كان يرتدي قميصاً أبيض مليئاً بالدم. مدَّ رأسه الملتحي إلى أعلى، لم تكن محاجر عينيه الميتَتين مرئية. كانت يداه تخبطان من دون فائدة. صرخ الرجل بصخب، وبألم شديد وغضب:

ـ أعيدوا إليَّ عينَيَّ، عينَيَّ! عينَيَّ الحادتَين!...

ثم سقط للأمام، في الروث، بعد أنْ تعثَّرَ فوق العتبة.

قال كوزيا مطمئناً:

ـ لا تسحب اللحاء للأمام. كما تعرف، دَعَونا الأب، فقال: لا شيء ينفع مع حالتك.

جرَّ كوزيا والمرأتان الرجلَ وأعادوه إلى الكوخ. مشى يغوروشكا على بعد خطوات قليلة من الكوخ، إلى سقيفة المخزن، إلى الجرف، للتبول، ثم عاد، وقال بتأمل: «لقد انطفأت النار، وهذا يعني أنه سيعود. يجب أنْ نخلد إلى النوم، ـ تثاوب وصلَّبَ على فمه. ـ «أعطني البيضات وسنتحاسب بعد ذلك». ذهب يغور وكاتياشا إلى مكانهما في الطرف الآخر من المنزل، إلى كوخ الحراسة. أشعل كوزيا شمعة منزلية الصنع في غرفة الخدم، وخلع قبعته؛ فركضت الصراصير عبر الطاولة. وكان الرجل يئن في الفراش، على السرير الخشبي. وكان الأطفال نائمين على الموقد. وثمة مهد معلق في منتصف الغرفة. أخرجَ كوزيا القدر الحديدي من الموقد. كانت البطاطس باردة، رشَّ كومة من الملح على الطاولة (ركض الصرصور، وشمَّها، وابتعد ببطء)، وبدأ يأكل البطاطس، من دون أنْ يزيل القشور منها. ثم استلقى، كما كان، على الأرض المقابلة للموقد. أكلت ماریاشا أيضاً البطاطس، وخلعت ثوبها، وبقيت في قميص مخيط من قماش كيس، وحلَّت شعرها، وهزّت المهد، وألقت إلى جانب كوزيا معطفه المصنوع من جلد الغنم، ثم نفخت على الشمعة، وحكَّت جلدها وهي تتنهد، واستلقت بجانب كوزيا. وسرعان ما بدأ الرضيع يبكي في المهد. فرفعت ماریاشا ساقها،

في وضعية خارقة للعادة، وبدأت تهز المهد بقدمها ـ ونامت وهي تهزّ. صاح الديك بوئام في الممر.

وفي الصباح، كان لدى كلٍّ من كوزيا ويغوروشكا شؤونه الخاصة به. نهضت ماریاشا عند انبلاج الفجر، وحلبت البقرة؛ وكان يركض خلفها في الفناء أطفالها الثلاثة، ذوو الكُروش الكبيرة الذين اغتسلوا آخر مرة قبل عام؛ وكانت كُبراهم جينكا البالغة من العمر ست سنوات ـ الوحيدة التي كانت تتكلم ـ تجر والدتها من طرف ثوبها، وتصرخ ـ «أريا ـ ريا ـ ريا، تيابتيا، تيابتيا» ـ تطلب الحليب. كانت البقرة قد غرزت، ولم تعطِ إلا القليل من الحليب، ـ فلم تقدم ماریاشا الحليب للأطفال، وضعته في القبو. ثم جلست ماریاشا على الشرفة المجاورة للمنزل الكبير، تراقب، وهي تشعر بالملل، متى يستيقظ الحراج، وطردت الأطفال بعيداً عنها حتى لا يحدثوا ضوضاء. خرج الحراج، الممتلئ بالحيوية، إلى الشمس، وذهب إلى نهر الفولغا للسباحة. ألقى الحراج التحية على ماریاشا، فضحكت ماریاشا، ونكست رأسها، ودسَّت يدها خلف سترتها، وقالت بوجه شرس ـ «نوَّرتم!» ـ وركضت بسرعة إلى غرفة الخدم، وسحبت السماور إلى الشرفة، ثم جلبت من القبو قُلَّة فيها الحليب وبطرف ثوبها ثماني بيضات. مرَّت من جانبها كاتياشا وهي تحمل الدلاء، وقالت على نحو لاذع وبحسد: «حاولي؟ ستضع نفسها قريباً معه في الفراش!» فردَّت عليها ماریاشا بتحدٍّ: «لماذا أنا أنام معه في الفراش، بل أنتِ مَنْ تريد!» كانت ماریاشا تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً فقط، لكنها بدت في الأربعين من عمرها، طويلة ونحيفة مثل العصا، بينما كانت كاتياشا قصيرة وعريضة العظام، تملأ وجهها التجاعيد، مثل فطر المطر، بما يتناسب مع سنيّ عمرها الخمس والثلاثين.

ذهب كوزيا إلى الغابة في الصباح، علَّق بندقيته على كتفه من الحبل وفوَّهتها إلى الأسفل، وأخفى يديه في جيوبه؛ سار ببطء، من دون طريق مُحَدَّد، على طول الممرات الضيقة المألوفة له وحده، ونظر برزانة مِن حوله. وهبط إلى الوادي الضيق، ثم تسلق الجبل، وذهب إلى أماكن منسية تماماً ومهجورة، نبتت هنا أشجار البلوط والقيقب، ونما حرش من أشجار الجوز. ثم بدأ في النزول إلى الجرف، مُتَشبِّثاً بالأدغال، فانهال حصى مُغبِراً. ووجدَ في

أوراق أشجار قديمة جلداً منزوعاً من ثعبان، فالتقطه، وعدَّلَه، ووضعه في غطاء الرأس تحت البطانة، واعتمرَ غطاء الرأس على جانب رأسه. ومِن ثم مشى ربع فيرست آخر على طول الجرف ووصل إلى كهف.

صاح كوزيا:

ـ يا ترى، هل يوجد أحد هنا؟ أندريه، فاسياتكا؟

خرج شاب وقال:

ـ ذهب والدي إلى نهر الفولغا، سيأتي قريباً.

جلس كوزيا على الأرض بالقرب من الكهف، أشعل سيجارة، وعاد الشاب إلى الكهف، وقال من هناك:

ـ ربما، تريد قدحاً طازجاً؟

ردّ عليه كوزيا:

ـ لا.

بقيا صامتَين. فاحت من الكهف رائحة خانقة منبعثة من صنف رديء من فودكا القمح. وبعد عشر دقائق تقريباً، جاء من تحت الجبل رجل، ذو لحية طويلة.

قال كوزيا:

ـ هل تغلون الساموغون؟ القمح قد نفد لديَّ بالكامل. لم يبقَ عندي لا طحين، ولا حبوب. وبالمناسبة، أحضِر لي زِنَة بودَين اثنين. سوف يحتفل يغور بطقس «فلازيني» الذي يُقام بمناسبة الانتقال إلى المنزل الجديد، وهو بحاجة إلى الساموغون، من الصنف الأفضل.

اجلبْه. الحرّاج سيذهب بعد الغداء من أجل سلخ لحاء الدَّبْغ، وجرش الحبوب، ثم يعرِّج على امرأته. في هذا الوقت بالذات تستطيع أن تعطيه لماریاشا.

تحدثا عن الأعمال، وعن غلاء الأسعار، وعن جودة الساموغون. وودَّعا بعضهما. وخرج الشاب من الكهف. وقال:

ـ يا كوزيا، دعني أَرمي!

سلمه كوزيا البندقية، وردَّ عليه:

ـ أطلِق النار!

أطلق الفتى النار. هز والده رأسه بحزن، وقال:

ـ فاسيلي هارب من الخدمة العسكرية...

في طريق العودة، ذهب كوزيا إلى مربي النحل إيغنات في وادي ليبوفايا. وجلس معه، وجعلا يدخنان. كان إيغنات، الملقب بالمؤجِّر، يجلس على جذع ويتحدث عن غرائب الحياة: «على سبيل المثال، ذات مرة كنتُ أجلس هنا، على هذا الجذع بالذات، وإذا بطائر الحسون من شجرة يقول لي: سوف تشرب الفودكا اليوم!» فأجبته: «ما هذا الهراء الذي تتحدث عنه، من أين الفودكا هنا؟...» واتضح أنَّ كلامه صحيح: فقد جاء العراب في المساء وجلب معه الساموغون!... الطائر فيه حكمة الله. أو، على سبيل المثال، ذات مرة، سيدك الجديد؛ ذهبتُ إليه ودخلت معه في حوار؛ سألتُه، كيف يفهم، عند عقد القران هل ينبغي السير حول منضدة تلاوة الكتاب المقدس (في الكنيسة) باتجاه الشمس أو عكس اتجاه الشمس؟ فأجابني: الحقيقة، كما يُقال، مثل هذه المسألة يجب أن يحسب لها حساب، إذاً، ينبغي عليك أن تقف في مكان واحد، ويجب حمل منضدة التلاوة والدوران مِن حولك؛ لأنَّ الشمس ثابتة في السماء والأرض تدور. ـ لقد سحقني، نعم! فقلت له: «وما تقول، على سبيل المثال، هل أنَّ يوشع بن نون، كما اتضح، أوقف الأرض وليس الشمس؟»... إنَّ هذا كله

جاء من كوبيرنيك. وقد أُحرِقَ كوبيرنيك هذا في كانون من النار؛ لو كان بمقدوري، لقطّعتُ جسده إرَباً إرباً، وكسَّرتُ عظامه، بيدَيَّ... والتبغ ـ إنه حقاً، عشبة الشيطان. لقد زرعت بنفسي تبغاً هنا، من أجل التدخين، اضطررت إلى أنْ أُلقي بخليَّتَين اثنتَين من العسل، فقد صارت تفوح من العسل رائحة التبغ...».

وبعدما أصبح كوزيا بمحاذاة المنزل، على مشارف المزرعة ذاتها، سقطَ في مرج مليء بعشبة الحمّاض، فاستلقى هناك على الأرض، وراح يزحف على بطنه عبر المرج كله، وأكل من عشبة الحمّاض. وفي المنزل، أعطته ماریاشا ثريداً من خبز الجاودار المنقوع بالماء. أكل، ثم ذهب لتنظيف الحصان، ففركه، وغسله، وبدأ يشد العدة عليه. غادر نيكولييف المنزل ـ فذهبا إلى الغابات.

وكانت كاتياشا ويغوروشكا قد بنيا منزلاً جديداً في القرية. وأكملا البناء، وبقي عليهما أنْ يُقيما طقس «فلازيني» والحصول على المباركة. وقد صنع يغوروشكا من مدة طويلة تابوتاً توضع فيه الأيقونة من خشب الماهوجني الذي أخذه من خزانة الأمير، فاشتغلت كاتياشا منذ الصباح الباكر، بعد حلب البقرة، بتنظيف هذا التابوت. ليس من الواضح كيف حصلت على ملصقات من مصنع البيرة ماركة «بيرة الصقر في الفولغا» التي تحتوي على صورة صقر ذهبي في المنتصف: لصقت كاتياشا الصورة في إطار التابوت، على خشب الماهوجني، لأعلى ولأسفل، ومقلوبة رأساً على عقب، لأنها لم تكن تعرف القراءة والكتابة. وكان لدى يغوروشكا وكاتياشا عيد مناسبة الانتقال إلى المنزل الجديد؛ منحَ نيكولييف يغورَ إجازة لمدة أسبوع. في الصباح، ذهب يغوروشكا وكاتياشا إلى إيغنات في المنحل لمعرفة ما يخبّئ لهما القَدَر. أثار إيغنات لديهما الشعور بالخوف. كان إيغنات جالساً في الكوخ على سرير صغير، ـ لم ينظر حتى إلى يغوروشكا وكاتياشا، بل لوح بيده فحسب، ـ أنْ اجلسوا، كما يُقال. كان إيغنات واضعاً بين رجليه قِدراً من الطين الذي يستعمل للفرن، وراح ينظر إليه ويقول ـ من يدري. بصق يميناً، يساراً، في كاتياشا (التي بلعت الإهانة باستكانة)، وبدأ وجه إيغنات في التشنج. ثم قام من خلف الطاولة ودخل إلى حجرة خزن المُؤن، وأومأ إلى يغوروشكا وكاتياشا بصمت ليتبعاه؛ كان المكان مظلماً وخانقاً، وكانت

تفوح فيه رائحة عسل وأعشابٍ جافة خانقة. أخذ إيغنات من الرف شمعتين من النوع الذي يُستَعمَل في الكنيسة، وأخذ يغوروشكا من يديه وأداره في مكانه ثلاث مرات، باتجاه الشمس، ووضعه خلفه، وانحنى إلى الأمام وبدأ يلف الشمعَتَين على شكل عقدة، وأعطى إحدى الشمعتين ليغوروشكا، والشمعة الأخرى لكاتياشا: وراح يتمتم على عَجَل بكلمات غير واضحة؛ ثم أخذ الشمعتين إليه مرة أخرى، ووضعهما كلتيهما معاً، وأخذ طرفَيهما بيديه، وشبكهما بأسنانه في المنتصف، وكشَّرَ عن أسنانه، وصعَّرَ وجهه، ـ صمتَ يغوروشكا وكاتياشا في رعب مهيب؛ ثم صفَّرَ إيغنات وزمجرَ وصرَّ بأسنانه، وبدت عيناه في الظلام في نظر يغوروشكا وكاتياشا تطفحان بالدم، وراح يصرخ:

ـ احنِه بتشنج، رأساً على عقب، من الأعلى إلى الأسفل. وقطّعه إلى سبعمائة وسبع وسبعين قطعة، واسْتَلْ عروق بطنه بطول ثلاث وثلاثين قامة.

ثم أوضح إيغنات بهدوء تام أنهما سيعيشان «في المنزل الجديد» بخير، وبوفرة من المال، وسوف يعيشان طويلاً، وستكون زوجة ابنهما ذات شعر أسود، ولن يتعرّضا سوى إلى مصيبة واحدة «بعد عدد مُبهَم من الأيام والليالي والشهور» سوف يُصاب ثورهما بالعمى، وسيتعين عليهما أنْ يذبحانه ويُباع لحماً. فعادت كاتياشا ويغوروشكا إلى المنزل مبتهجَين وودودَين ومكتئبين قليلاً من المعجزات، ـ أعطاهما إيغنات الشمعتَين وعلمهما ما يجب عليهما فعله بهما: في المنزل الجديد، اذهب إلى عمود البوابة، وأشعل شمعة هناك وشيِّط العمود، ثم اذهب إلى الكوخ بالشمعة المشتعلة، وألصق الشمعة هناك على عضادة الباب، وافعل هكذا مدة ثلاث ليال متتالية، بدقة شديدة إلى درجة حتى تحترق الشمعتَان في المرة الأخيرة نهائيّاً على الأرض وتخمدان على الفور، ـ في المرَّتَين الأولَيين أطفئ الشمعتَين باليد اليسرى، وينبغي أنْ يكون ذلك بالإبهام والسبابة ـ وأنْ لا تخطئ، وإلا ستفقد أصابعك.

كان نيكوليف قد غادر عندما عادت كاتياشا ويغوروشكا. أُحضِر ليغوروشكا دلو من الساموغون. بدأ يغوروشكا يشد عدة الحصان، توقَّفَت كاتياشا برهة، وتوانت في

الاستعداد، وجعلت تلصِق على التابوت صور «بيرة الصقر في الفولغا»، صورة بعد أخرى. لم يكن لدى يغوروشكا ما يفعله، فمشى إلى منزل السيد، وسار إلى الغرفة التي استقر فيها نيكولييف، ومسَّد على سريره، واستلقى عليه، وتمنى أنْ يكون مكانه؛ كانت على المائدة بقايا من قشدة حامضية وسُكَّر حبيبات في علبة للأقراص الطبية المُحلاة، ـ بلّل إصبعه بلعابه وغرزه أولاً في القشدة الحامضية، ثم في السُّكَّر، ومن ثم لعق إصبعه؛ كان على النافذة مسحوق أسنان، وفرشاة، وشفرة حلاقة: بقي يغوروشكا هنا مدة من الزمن، تذوق المسحوق، ومضغه ثم بصقه، وهز رأسه في حيرة، وأخذ المرآة وصفف لحيته وشاربه بفرشاة الأسنان؛ وكانت ماكنة حلاقة آمنة ملقاة بالقرب من المرآة وثمة شفرات متناثرة، ـ فتفحَّصَها يغوروشكا جميعها، وعدَّها، واختار الأسوأ من بينها، وأخفاه في جيبه؛ في غرفة المكتب، جلس يغوروشكا خلف طاولة مكتب نيكولييف، واتخذ وجهه هيئة صارمةً، واستند على ذراعَي الكرسي، وبعد أن نشر مرفقيه وكفيه قال: «لا بأس، ماذا بشأن سارقي الأخشاب! ـ تعال!...» في المجال الأُسَري كانت كاتياشا مسيطرة على يغوروشكا؛ وسرعان ما وقفت عربة أمام كوخهم؛ كان في العربة تابوت تعليق الأيقونات التي أُلصِقَت عليه «الصقور في نهر الفولغا»، وكرسي مكسور ذو ذراعين وظهر مذهّب، وسلتان ـ إحداهما فيها ديك أسود (استُبدِلَ عند مارياشا)، والأخرى فيها قط أسود (حصلوا عليه منذ الربيع؛ القط والديك كانا مطلوبين من أجل الاحتفال بالانتقال إلى المنزل الجديد)، وصندوق فيه أشياء كاتياشا العتيقة التي كانت عندها منذ أيام الصبا؛ وفي الجزء العلوي من العربة جلست كاتياشا بنفسها، وهي ثملة من جراء احتسائها الساموغون، وتلوح بمنديل أحمر، وترقص وهي جالسة، وتصرخ «إلى مدينة ساراتوف، يا عربتي، لنذهب»... وقفت مارياشا وأطفالها بجانب العربة وهي تنظر باندهاش وحسد؛ صمتت كاتياشا، وصلَّبَت، وصلَّبَ يغوروشكا ومارياشا، ثم صلَّبَ الأطفال، فقالت كاتياشا: «تحرَّكْ بحفظ الله!» وقالت لمارياشا مترجيةً: «اعتني بالماشية، إيغنات سيأتي لرؤيتها، أريه!...» سارت العربة، ومشى يغوروشكا راجلاً والعنان بيده، وصرخت كاتياشا مرة أخرى: «يا عربتي، يا أمريكية، وأنا صبية شيطانية!...».

في عهد نيكولييف، عُقِدَ اجتماع واحد فقط للجنة العمال. أعدَّ لعقده الشابّان الطيبان، كاندين وكونكوف، وهما شيوعيان من عمال المصانع. كان الاجتماع مقرراً في الغد، لكن حضر الكثيرون في المساء، وكان على البعيدين أنْ يأتوا من مسافة أربعين فيرستاً. في المساء، أشعلوا ناراً في المتنزه، في ملعب الكروكيت، وسلقوا البطاطس والأسماك. وقد اجتمعوا عند نيكولييف في «العشية» من أجل التوصل إلى اتفاق قبل مفاوضة لجنة العمال، ـ بعضهم كانوا أكثر ذكاءً، وبعضهم كانوا شيوعيين. كان كونكوف عابساً وحاسماً، أما كاندين فأراد أنْ يبدو أكثر صبراً؛ تحدثوا عن الثورة، وعن الغابات، وعن اللصوصية وعن سرقة الغابات التي ليس لها مثيل، ـ تحدثوا بهدوء... أشعلوا شمعة وجلسوا في دائرة قريبة، في الصالة، وقد استلقى نيكولييف على الأريكة؛ ـ قال كونكوف باكتئاب: «لا بدّ من الإعدام رمياً بالرصاص، أيها الرفاق ـ وأول عمل لنا، أنْ نرمي ناسنا، جماعة الغابات حتى يخاف الجميع. هل تعرفون، ما يحدث؟ ـ إننا في حرب مع القرويين، والأكثر دهاءً من بينهم، ـ يذهب إلى أحد معارفه من حرّاس الغابة، ويتحدث معه، ويدس له صاعاً من الحنطة، ـ فيسمح له حارس الغابة بكل ما يريد، ـ اتضح، أيها الرفاق، إنَّ الأمر مجرد نفاق محض وبشاعة صِرفة. سامحوني، أيها الرفاق، أعترف: لقد ضايقني أحد القرويين من شيخان، ـ طلب في البداية خشباً من أجل ترميم الكوخ. وبعد يوم أو يومين ـ كنتُ أجلس جائعاً، فجاء يتمطى وهو يحمل الساموغون والفودكا. فوجَّهتُ له لكمات كثيرة على وجهه لدرجة نُقِل بعدها إلى المستشفى، لأني لم أستطع تحمل موقفه ذلك». ردَّ عليه كاندين: «لقد وجَّهتُ لكمات، أقولها بصراحة، أكثر من مرة، ولكن هذا الفعل لا يوجد فيه الكثير من الخير. ينبغي أنْ نتبصَّر ونتصرَّف على العكس من ذلك: يتقاضى الحرَّاجُ راتباً، ليشتري به الخبز. الراتب ـ روبل ونصف؛ ولكن هذا المبلغ لا يكفي المرء ليعيش، فتُلجئه الحاجة إلى أن يسرق، ـ انظر بعينك، كيف يعيش حارس الغابة، الخنازير في الزريبة تعيش أفضل منه. في علم الغابات، ثمة حاجة إلى الإحصائيات: ينبغي التأسيس لقواعد تَحُول دون الاضطرار إلى السرقة، من دون أنْ تبيّن أنك تُلاحظ أنهم يسرقون بدافع الحاجة. وإذا ما سرقوا بعد ذلك، فهذا يعني أنهم يفعلون ذلك بدافع الأذى، ـ إذاً، العكس، يجوز الإعدام رمياً بالرصاص. لا يوجد قديسون، ـ ولكن عليك أن تؤدي عملك!» وتحدثوا عن لجنة العمال. ـ كان من

الضروري إنشاء لجنة عمالية لإلزام الجميع بالمسؤولية المتبادلة. كان نيكوليف صامتاً ويستمع. الشمعة كانت تضيء الأريكة فقط... لم يعرف كونكوف ولا كاندين كيف يقودان اجتماع لجنة العمال في الصباح حتى لا يقطعوا الصلة بجميع سكان الغابة الآخرين... في المتنزه غنوا أغنية ثم خمدوا، ذهب نيكوليف إلى المتنزه. كان هناك أشخاص يجلسون حول النار، وجميعهم صعاليك يرتدون، ملابس رثة مختلفة، وكلهم يحملون بنادق. وكوزيا مستلقٍ مقابل النار، مُسنِداً خديه على راحتيه، ينظر إلى النار ويحكي قصة. وكانت الغربان، التي أثارتها النار، تنعب على الأشجار. جلس نيكوليف بجوار النار وبدأ يستمع.

تحدَّثَ كوزيا:

ـ... واتضح، كما يُقال، أنَّ إيليا إيفانوفيتش أراد أن يضحك على الكهنة، لكن صار العكس. فتح إيليا إيفانوفيتش الصندوق ـ فرأى الكهنة الثلاثة ممدَّدين فوق بعضهم البعض وقد ماتوا جميعاً، أصيبوا بالبرد من جرّاء الصقيع. ففزعَ إيليا إيفانوفيتش، ونقل الكهنة إلى سقيفة المخزن، ومدَّدهم جنباً إلى جنب، ثم دخل إلى الكوخ، وجلس خلف الطاولة، يفكر، لاحِظوا، وقد استولت عليه الرعشة من الحمى، وتصبَّبَ عَرَقاً... ولكن إيليا إيفانوفيتش كان ذكياً جداً، فجلس لمدة ساعة خلف الطاولة، يفكر، ثم صفعَ على جبينه! وذهب إلى سقيفة المخزن، كان الكهنة قد تيبَّسوا من البرد، ـ فأخذ واحداً من الكهنة، ووضعه بالقرب من السياج الخشبي، وصبَّ عليه الماء، فتجمَّدت رقاقات الثلج على الكاهن. وبعد ذلك ذهب إيليا إيفانوفيتش إلى الحانة، لاحِظوا، وأخذ معه الزجاجات التي لم يكمِل الكهنة شُربَها، وكانت الهارمونيكا تُعزَف هناك، والناس جالسون، ـ وعلى الدكة، من بين الموجودين، السكير فانيوشا جالس، في انتظار إحضار شيء إليه. فاقترب إيليا إيفانوفيتش من فانيوشا وقال له: «اشرب!» وأعطاه زجاجة. شربها فانيوشا، وسَكرَ على الفور، ـ فقال له إيليا إيفانوفيتش: «كان بودّي أنْ أعطيك أكثر، لكن لا يوجد لديَّ وقت. يجب عليَّ أنْ أذهب، في الحقيقة، ثمة غريق وصل إلى فناء الدار، وينبغي عليَّ أن آخذه إلى حفرة في الثلج في نهر الفولغا». فأصرَّ فانيوشا: «دعني، أنا آخذه إلى هناك، ولكن عليك أنْ تضيّفني!» وهذا بالذات ما احتاجه إيليا إيفانوفيتش، فقال بتثاقل: «لا بأس، إذا كان لا بدّ، فسأسمح

لك، بسبب الصداقة بيننا، ـ بعد أن تحمله، تعال إليَّ إلى الكوخ، وسوف أُضَيِّفك!» فهبَّ فانيوشا يركض على الفور. «أين الرجل الغريق؟» ـ «ها هو!» فأمسك فانيوشا بالكاهن، ووضعه على كتفه وذهب مباشرة إلى البوابة، ـ فقال له إيليا إيفانوفيتش: ـ «انتظر فحسب، ينبغي أن نضعه في كيس، وإلا ستخيف الناس». ـ فوضعاه، لاحِظوا، في كيس. وحمله فانيوشا، فأخرج إيليا إيفانوفيتش الكاهن الثاني من المخزن، وصبَّ عليه الماء، وانتظر. فجاء فانيوشا يركض إلى الكوخ: «لا بأس، أين الشراب؟» فقال له إيليا إيفانوفيتش: «كلا، يا أخي، انتظر، لم تنقله كما ينبغي، فقد عاد على الفور مرة أخرى. ـ «مَن؟» ـ «الغريق». ـ «أين؟» فخرجا إلى الفناء. وكان الكاهن يرقد عند السياج. حملق فانيوشا بعينيه، وغضب: «آه منه، يا له من كذا وكذا، إنه لا يطيع!» ـ ورفع الكاهن الثاني وركض به إلى الحفرة، ـ فتبعه إيليا إيفانوفيتش: «عندما تدفعه في الماء، قل: ارحمه يا الله، ـ وسوف يأخذه الماء!» قال ذلك بمثابة الصلاة على روح الكاهن، على كل حال. وما أنْ خرج فانيوشا من فناء الدار، ـ حتى وضع إيليا إيفانوفيتش الكاهن الثالث عند السياج. جاء فانيوشا يركض، فوبخه إيليا إيفانوفيتش: «آه منك، يا فانيوشا! ألا تستطيع أنْ تحمل الغريق إلى الماء. ها، هو ذا، قد عاد مرة أخرى. ينبغي عليَّ أنْ أذهب معك لكي أضعه في الماء بشكل نهائي. احمله وسوف أسير خلفك، لأرى كيف تتعامل معه». ـ حملا الكاهن الثالث، ونظر إيليا إيفانوفيتش، ـ أنزلَ فانيوشا الكهنة في الماء كما ينبغي، فهدأ وقال: «حسناً، بعد كل شيء، لقد عملتَ، يا فانيوشا بجدّ، دعنا نذهب ـ سوف أُضَيِّفُك!» وقد أسكَرَه لدرجة أنَّ فانيوشا فقدَ ذاكرته كلها، ونسي كيف حملَ الغرقى. لذلك لم يعرف أحد عن الكهنة شيئاً، ولم يعرف أحد ما حلَّ بهم. هذه الحكاية وكل ما فيها، ـ قال كوزيا.

ابتعد نيكولييف عن النار، وذهب إلى الظلام، ودار حول المزرعة والمنزل، ـ ثم صعد الجبل، إلى الجرف، ليفكر، وليبقى بعض الوقت لوحده... بدت له الحكاية نذير شؤم.

في الصباح، في ساحة الكروكيت نفسها التي قضى الكثيرون الليل حول النار فيها، اجتمع ما يقرب من سبعين شخصاً من الحرّاجين وحرّاس الغابات. وقد وضعت طاولة تحت

شجرة زيزفون، وجُلِبَت مقاعد ـ لكن الكثير منهم رقدوا على العشب حول الساحة. لم تخمد النار. وكُدِّسَت البنادق، كما تُكَدَّس في الجيش. وانتُخِبَت هيئة رئاسة.

بقي من هذا الاجتماع البروتوكول الآتي:

استُمِعَ: 1. تقرير الرفيق كونكوف حول الوضع الدولي(9).

قُرِّرَ: 1. أُخِذَ بعين الاعتبار.

استُمِعَ: 2. تقرير الرفيق كاندين عن خطة عمل اللجنة العمالية.

أ) العمل الثقافي والتعليمي.

ب) أموال اللجنة العمالية وبنود المصروفات.

قُرِّرَ: 2. في ضوء تباعد منازل السكان في الغابات، لا ينبغي انتخاب اللجنة الثقافية؛ الاشتراك الجماعي لكل مخفر حرّاس جريدة(10)؛ النفقات 1) القرطاسية، 2) عربة النقل إلى المدينة، 3) مخصصات الإيفاد اليومي.

استُمِعَ: 3. اقتراح الرفيق كونكوف أنْ يُستَقطَع من الراتب لصندوق بناء نصب تذكاري للثورة في موسكو.

قُرِّرَ: 3. خصم مبلغ يوم واحد من الراتب.

استُمِعَ: 4. تقرير من نيفيدوف، رئيس مجلس قرية كادوم، عن وجود أسماء وهمية في كشوف المرتبات الخاصة بالمخفر رقم 27، والتي حصل عليها حارس الغابة ساريتشيف. ـ قدم ساريتشيف البيانات المذكورة أعلاه وأشار إلى أنَّ صحتها موثقة بختم وتوقيع نيفيدوف رئيس مجلس القرية، الذي كتب التقارير المذكورة في أعلاه.

قُرِّرَ: 4. في ضوء غموض التقرير وتناقضه في حدّ ذاته ـ إرسال القضية لمزيد من التحقيق، وإرسال نسخة إلى إدارة المباحث الجنائية.

استُمِعَ: 5. قضية ثور التخصيب الذي أكله مُرَبّو الحيوانات وحرّاس الغابة من المخفر السابع؛ فقد أُخِذَ ثور التخصيب من حقل تربية الأبقار من خلال التستر المتبادل، ـ وذُبِحَ الثور وأُكِل، وأُرسِلَ مَحضَر إلى حقل تربية الأبقار بأن الثور مات من الجمرة الخبيثة.

قُرِّرَ: 5. نظراً للتصرف غير القانوني مع الثور، من طرف الحراجين ستوسلوف وسينيتسين وشافيلكين ومروَّ الحيوانات أوساتشيف تُستَقطَع شهرياً أجرة ثلاثة أيام من راتبهم وتُرسَل إلى خزينة مزرعة تربية الأبقار.

استُمِعَ: 6. رغبة الحراج الرفيق سوشكين بعدم عقد اجتماعات عامة يوم الأحد(11).

قُرِّرَ: 6. أُقِرَّ الاقتراح.

استُمِعَ: 7. اقتراح من جانب حارس الغابة ساريتشيف بشأن انضمام الجميع دفعة واحدة في الحزب الشيوعي الروسي.

قُرِّرَ: 7. تبقى المسألة مفتوحة(12).

الرسالة الأولى التي كتبها نيكولييف من جبال ميدينسكي ـ لم يكملها، وكتبها بهذا الشكل:

«... بعيداً جداً، في أقصى أرجاء الدنيا، التي لا يوجد أقرب بريد فيها إلا على بعد ستة عشر فيرستاً، والسكك الحديدية على بعد مائة فيرست، ـ في منزل ملعون على نهر الفولغا، في المنزل، الذي انتقلت فيه لعنة الملاكين الإقطاعيين إليّ أيضاً، ـ في الحر وفي العمل، الشيطانين حقاً! ـ أعيش مثل روبنسون، أنام بدون شرشف، وآكل البيض والحليب النيئَين، من دون طبخ، وأمشي شبه عارٍ. كل ما حولي تفاهة، وخزي، وخسَّة. أقرب قرية عنّا تبعد 16 فيرستاً، ولكن تحت الجرف ثمة «طريق مائي كبير»، وإنّي غالباً ما أتحدث مع أولئك

الذين يجرّون الزوارق بالحبل على طول نهر الفولغا. وهناك الكثير منهم، إذ يمر عشرون زورقاً تقريباً كل يوم، وعادة ما يستريحون بالقرب منا ويطبخون حساء السمك؛ فمثلاً، قبل خمسة أيام كان أحد الفلاحين يجر الزورق الذي يحمل زوجته المربوطة فيه؛ وأخبرني أنَّ ثلاثة شياطين حلَّت في زوجته، واحد تحت القلب، والآخر في «شريان الحياة»، والثالث ـ تحت الذراع، ـ وعلى بعد مئة فيرست منّا ثمة معالج شهير يمكنه إخراج الشياطين، ـ لذلك أحضر زوجاته إليه؛ وقد عاد بالأمس، كانت زوجته تجر الزورق، وهو جالس فيه، ـ وقال إنَّ الشياطين طُرِدَت. ـ إنَّ موضوع هذه الرسالة ـ هو، الناس الذين أعيش معهم، ـ وهم اثنان من حراس الغابات مع زوجتيهما وأطفالهما. أحدهما بنى لنفسه كوخاً من الخشب المسروق، الذي استُؤجِر لحراسته، وأثثه بقطع أثاث من العزبة؛ لكن هذا ليس الشيء الرئيس، بل الشيء الرئيس هو أنه قبل الانتقال إلى الكوخ، أدخَل قطاً أسود وديكاً إلى هناك، ووضع تحت الموقد رغيفاً من الخبز مع الملح ـ لعفريت المنزل، وركضت زوجته ـ عارية ـ حول المنزل لكي «تُبعِد العين». وقد مَرِضَ لديه الثور، إذ كانت عينا الثور ينهمل منهما الدمع، ـ لم يكن الطبيب البيطري بعيداً جداً، في فيازوفي، ـ لكنه استدعى معالج القرية (هذا المعالج، قروي ـ مؤجّر المنحل، جاء إليَّ عدة مرات من أجل قضاء بعض الوقت بالحديث، ـ وإنّي لا أعتقد أنه ساحر، ـ بل مجرد قروي لا يختلف عن سائر القرويين، سوى أنه أكثر منهم دهاءً ويعرف القراءة والكتابة ويثرثر بأشياء حول كوبيرنيك)، ـ وهكذا فحص المعالجُ الثورَ، وهمس بكلمات، وأزال غشاءً ما من عين الثور وذرَّ فيهما الملح، فعمي الثور؛ ثم أخرجت كاتياشا، زوجة يغوروشكا، «جلد ثعبان منزوع»، وجففته، وسحقته إلى مسحوق، وعالجت الثور بجلد الثعبان المنزوع، وذرّته في عينَيه اللتين عمِيَتا. زوجة الحراج الثاني تدعى ماریاشا. في البداية كنتُ أناديها ماشا، ـ فقالت لي: «لماذا تناديني هكذا؟ الجميع ينادونني ماریاشا!» لديها ثلاثة أطفال، وتبلغ من العمر 23 عاماً، ـ وإنها تحسدني على «حياتي» لدرجة سيلان اللعاب: «إيه، إنك تأكل كل شيء مع الزبدة، وتشرب الحليب بقَدر ما تريد!» وهي لا تعطي الحليب لأطفالها، بل تبيعه لي: أشعر بالاشمئزاز، لكنني أعرف ـ إذا لم آخذه منها، سأموت من الجوع، لأنني لا أعرف كيف أتضور جوعاً مثلهم إلى الأبد، ـ وستترك الحليب لتصنع منه الزبدة والجبن القَريش، ثم تبيعه على كل

حال. لم تذهب ماریاشا إلى المدينة قط، إلى مركز الناحية، الذي يبعد ثلاثين فيرستاً؛ ولم تر الحنطة السوداء قبل أنْ آتي إلى هنا ـ «نحن لا نزرع هذا!» ـ وعلى الفور سرقت مني نصفه للأطفال؛ لديها ثلاثة أطفال على قيد الحياة يمشون عراة، وتوفي اثنان آخران. عمرها ثلاثة وعشرون عاماً، ومع هذا لديها مرض من أمراض النساء، الذي يتحدث عنه زوجها كوزيا للجميع عن طيب خاطر، ـ لم تولِّدها طفلاً واحداً حتى الجدة المعالِجة (المشعوذة): هي تلد بنفسها، وتقطع الحبل السري بنفسها، وتغسل الدم بنفسها بعد الولادة، بعد أنْ ترسل زوجها إلى الغابة من أجل هذه الحالة. هذا، التوحّش، الرعب ـ الشيطان يعرف ما هو! ـ وهذا موقفهم تجاهي. ـ بالأمس أتى ألماني من وراء نهر الفولغا، وعرض عليَّ زيتاً؛ سألته: بكم؟ فأجاب «كما كانوا يأخذون مني في السابق بخمسة وعشرين». وكانت ماریاشا وكوزيا وكاتياشا يأخذون مني ستين مقابل الزيت. فنفد صبري، فناديتُ على ماریاشا وكاتياشا وقلتُ لهما ـ كيف لا يخجلون مني، وأنا أرى كيف يخدعونني ويسرقونني في كل خطوة وفي كل صغيرة، ـ فأنا أتصرف معهم بروح رفاقية وبطيبة قلب، وسوف أضطر إلى أنْ أعدُّهم لصوصاً ولن أحترمهم، ـ وألقيتُ عليهم موعظة أخلاقية وجدانية. لم تطرف لهم عين ولم تظهر عليهم أيّ علامات ارتباك، وقالوا: «إننا نفعل ذلك عن قصد، على نحو المزاح!».

«وعند الظهر من ذلك اليوم، فجأة أتوا إليَّ يحملون سمكة حفش: «هذه هدية لك!» فطردتهم مع سمكتهم. وقررتُ أنْ أكون بالنسبة لهم ـ السيد، وليس أكثر ـ بما أنّي لا أحرث الأرض، وأغسل ملابسي الداخلية بالصابون، وأفعل أشياء لا يفهمونها، وأقرأ، وأسكن في منزل الإقطاعي، لذلك ـ فأنا سيد؛ سأجعلهم يدبّون على أيديهم وأرجلهم ـ سوف أجعلهم يلعقون الأرضية ـ وسوف يلعقون، ويفعلون ذلك بنسبة 50 % بسبب خوف العبيد، و50 % ـ لأنهم يفكرون ـ ربما السيد يريد هذا حقاً، ولأن الكثير مما أفعله يبدو لهم سخيفاً مثل لعق الأرضية، ـ سيفعلون أي شيء أريده، ـ لكنني اعتدتُ دائماً على ألا أدع أحداً خلفي، لأنني لا أعرف ما إذا بدا لكاتياشا أو لكوزيا أنَّ من الضروري في تلك اللحظة أنْ يغرز السكين في ظهري: ربما، هذا احتراس لا داعي له، لأنهم ينظرون إلي كأنني بقرة حلوب،

وسمعت كاتياشا تقول بحسد: «أرسلني الله» لماریاشا، لأنَّ ماریاشا، عندما تضع لي السماور وعندما تنظف غرفتي والمكتب، لديها الحق الكامل والفرصة، اللتان تستحسنهما كاتياشا، للسرقة مني بشكل منهجي!... نعم، هذا صحيح، ولكنني شيوعي نزيه. أنا لا أعرف كيف يفهم رجالنا الشرف، لأنه يجب أن يكون موجوداً عندهم. إنهم يعيشون من دون أن يفهموا أيَّ شيء، وها هو يغوروشكا الآن يبني كوخاً جديداً وفقاً لجميع قواعد الدجل، في الوقت الذي تجري فيه الثورة العالمية! هؤلاء هم جميع الناس الذين أراهم مِن حولي، لكن إلى جانبهم ما زال أناس آخرون غير مرئيين ـ هؤلاء هم المئات، وربما الآلاف، الذين يقتلعون الغابات من حولي، والذين أحاربهم ليس من أجل الحياة، بل حتى من أجل الموت. لديَّ شعور بأنَّ مَن حولي جميعهم لصوص، لص يجلس على لص، ولا أفهم كيف لا يسرقون بعضهم البعض، ـ على الرغم من أنني نسيت: إنني نفسي، سرقني الألمان، واحتفظوا بي مُحتَجَزاً في حجرةِ خزنٍ مظلمةٍ!... أجل، هكذا هو الحال... أطفال ماریاشا يمشون عراة، لأنهم لا يجدون ما يرتدون، وهم جميعاً يعانون من جربٍ شديد، ـ في البداية بدأتُ أتناول الطعام مع كوزيا، لكنني كنت أشعر بالغثيان من الوساخة، ـ وكنتُ أشعر بالخجل من تناول الطعام بحضور الأطفال، لأنهم جائعون، ولا يأكلون ما فيه الكفاية حتى من الخبز والبطاطس، ـ أما اللحم، والزبدة، والبيض فلا يرونه أبداً... وفي ما يخص مينكا ـ الراعي الذي يتحدث مع الأبقار بلغة البقر التي لا تشبه لغة البشر، والذي عندما يتكلم بلغة البشر يواجه صعوبة، ـ لقد وجد في الغابة ملجَأً محفوراً في الأرض ممتداً في وادٍ، في عمق الغابة ـ امتدّ الملجأ إلى الجبل، ـ وفي الملجأ مزمورٌ نصف متحلل، لا بدّ أن يكون ثمة رجل صالح قد التجأ إلى هنا: من المثير للاهتمام معرفة، ما إذا كان يعدّ الصابون نجساً أم مقدساً؟... وبالنسبة للمعالج ـ «المؤجر» يتنبأ له طيرُ الحسون، متى سيشرب الساموغون. والراعي مينكا نفسه مشهور بحقيقة أنه في العام الماضي، قبل أنْ آتي، ولدت بقرة في قطيعه عجلاً برأس بشري، ـ وقد قتلَت النسوة هذا العجل، وسرت الشائعات مفادها أنَّ مينكا أبو ذلك العجل: بالطبع، لا يمكن أن يحدث هذا، ـ لكن مينكا، الذي يتحدث مع الأبقار بشكل أفضل مما يتحدث مع الناس، يمكن أن يشتهي الأبقار ـ لنترك ذلك على عاتق ضميره»...

لم ينتهِ نيكولييف من كتابة هذه الرسالة حينها. جلس ليكتبها في المساء بعدما عاد من الجبل الذي اعتاد أنْ يشعل عليه ناراً، وجلس خلف الطاولة حتى وقت متأخر من الليل. كتب في غرفة المكتب، وكانت على الطاولة شمعتان مشتعلتان، منتفختان بالشحم الشمعي، ـ كانتا تسيلان الشحم الشمعي على القماش الأخضر فوق الشمع الكثير المتجمع من الليالي العديدة الأخرى على القماش، في هذا المنزل، المر مثل عسل التبغ. وفجأة، شعر نيكولييف أنَّ القشعريرة استولت على جلده كله، ـ أول مرة أحسَّ بهذه القشعريرة المعتادة، ـ تحسَّسَ على عَجلٍ من المسدس، ـ وقفز من على الطاولة، وأمسك بالمسدس لإطلاق النار، ـ وعند ذاك دخل كونكوف إلى غرفة المكتب، وهو يحمل بيده مسدساً ملوَّثاً بالتراب ووجهه مغبَرّ من التراب. قال كونكوف:

ـ أيها الرفيق أنطون! إيليا كاندين ـ قتله القرويّون، في محلّ قطع الأشجار من دون ترخيص. وصلت مفارز الاستطلاع العسكرية إلى كادوم وفيازوفي وبيلوكون، ولا يمكن تحديد ما إذا كانوا من البيض(13) أو من الحُمر(14). القرويون يقومون بأعمال شغب!

(7) السَّماوَر أو الساموفار ـ وعاء معدني يُستعمل لغلي الماء وتحضير الشاي، يستخدم في روسيا وأوروبا الشرقية وبلدان الشرق الأوسط. (المترجم).

(8) البود ـ وحدة وزن روسية قديمة تساوي 16,38 كغ. (المترجم).

(9) في التقرير، أخطأ كونكوف، عندما أشار إلى أنَّ أوروبا وروسيا تقعان جغرافياً في قارّتَين مختلفتَين. (الملاحظة من المؤلف).

(10) اتضح أنَّ نصف حرّاس الغابات أميون، همس كوزيا ليغوروشكا، وهو يصوّت: «لا بأس، سوف نستخدمها ورقاً للسجائر وندخّنها». (الملاحظة من المؤلف).

(11) آنذاك، في اجتماع، نهض عن العشب فتى حافي القدمين يرتدي معطفاً عسكرياً قديماً وقال وهو متردد: «إني أعتقد، أيها الرفاق، كما اتضح، أننا نرغب ألا يُعقد اجتماع

لجنة العمال في يوم الأحد، لأنه، نظراً لكون المواطنين الذين يقطعون الأخشاب من دون تصريح يكونون في أيام العمل جميعهم في العمل في الحقل، فلن تقبض عليهم هناك، ـ أما في يوم الأحد فإنهم يجلسون في المنزل، وحينئذ يمكنك القبض عليهم مع الشرطة». (الملاحظة من المؤلف).

(12) قال الرفيق كاندين بعد ذلك: إنَّ مسألة الانضمام إلى الحزب الشيوعي الروسي ـ مسألة تتعلق بضمير الجميع. وقد شعر ساريتشيف بالإهانة منه، وقال: «... ولكن إذا كنت تعتقد أنَّ رئيس المجلس، فاسكا نيفيدوف الذي من كادوم، واشٍ، وهو الذي نسج الأكاذيب عنّي، فأقول، إنه، هو نفسه المحتال الأول، والأسماء التي وقَّعَ عليها ـ أشخاص غرباء، وقد عادوا الآن إلى ديارهم، إلى فيتلوغا... (الملاحظة من المؤلف).

(13) البيض: أتباع الحركة البيضاء التي يُدعى جناحها العسكري الجيش الأبيض وأعضاؤها البيض (الحرس الأبيض) تضم القوات السياسية والعسكرية الروسية المناهضة للبلشفية بعد ثورة أكتوبر وحاربت الجيش الأحمر خلال الحرب الأهلية الروسية بين سنتي 1917 و1923. كان تحالف الجيوش البيضاء سيئ التنسيق ولا يحظى بالدعم الشعبي فخسر الحرب الأهلية ونفي معظم المنخرطين فيه إلى باقي أنحاء أوروبا. (المترجم).

(14) الحمر: قوات الحرس الأحمر التي شكّلتها التنظيمات الحزبية الموالية للبلاشفة بعد ثورة أكتوبر عام 1917 وفي سنوات الحرب الأهلية. (المترجم).

الفصل الثالث: عن أمنا الأرض وعن الحب الجميل

إنْ يستفسر الإنسان من القرويين عن أمنا الأرض، وإنْ يستمع إلى شخص مُتعَب، ـ ستقف أمامه المخاوف، والشياطين، وذلك الشغف الأرضي، وذلك الشبع الدنيوي، وكل ذلك الذي لو صادفه البطل ميكولا(15)، لقلَبَ العالم. يقول القرويّون ـ شيوخاً ونساءً ـ إنَّ الجبال والوديان حفرتها شياطين ضخمة، من تلك التي لم تعد موجودة، بقرونها ـ في الوقت نفسه الذي طردهم فيه رؤساء الملائكة من الجنة. أمنا الأرض، مثل الحب والجنس، سرّ مكنون. أمنا الأرض، هي السرّ الذي قَسَّم الإنسانَ إلى رجل وامرأة. إنها تغري على نحو مُهلِك، وتجعل الرجال يقبِّلون الأرض على نحو بَنَوي، ويحملونها على أكفِّهم، يرددون التعويذات لها: الحب والكره، الشمس والنهار. والفلاحون يقْسِمون بأمّنا الأرض ـ كما يقسمون بالموت وبالحب. ويحرثون أمنا الأرض بالتعويذات والعزائم، ومن ثم، في الليل، بدلاً من الحصان، يشدّون على المحراث أرملة عارية: خَبرَت كل شيء، وتقود المحراث فتاتان عاريتان. هاتان الفتاتان، مستقبل الأرض والعالم أمامهما. فالمرأة ـ أمنا الأرض. وأمنا الأرض نفسها: الحقول، والغابات، والمستنقعات، والجبال، والأدغال، والمسافات، والسنوات، والليالي، والأيام، والعواصف الثلجية، والعواصف الرعدية، والسلام. ـ ـ أمنا الأرض يمكن أنْ تحبها أو تلعنها.

كان لدى نيكولييف الكثير من العمل، فالجنوب الشرقي اقتطعه أهالي نهر الدون والأورال، وكان التشيكيون ينتقلون من بينزا إلى قازان، حتى دَنَوا من نهر الفولغا. أنقذ أهالي ميدين نهر الفولغا. بالقرب من قرية موكري بالكي وفي بوتشينكي وفي أوستروفي وفي زالوغي ـ في عشرات المناطق ـ حُمِّلَت الصنادل بالحطب وبالأخشاب والألواح. وكانت تأتي في الليل والنهار البواخر الممتلئة ـ في الليل كانت البواخر تنفث نيران الشرر، ـ تأخذ الحطب، الذي هو بمثابة الحياة لها، لكي تصفع الفجر والمياه بشفرات دواليبها، وتثير الرعب عبر

المسافات البعيدة. من مدينة ساراتوف، ومن مدينة سامارا، ومن مراكز الأقضية، ومن مدن السهوب ـ كانت تأتي مفارز من الناس بالمناشير، من أولئك الذين كانت إرادتهم النصر وليس الموت: العمال، والأساتذة، وطلاب الجامعات، وتلامذة المعاهد العسكرية، المعلمون، الأمهات، الأطباء، الشباب والشيوخ، الرجال والنساء، كلهم ذهبوا إلى الغابات، وقطعوا الأشجار، وجرحوا أيديهم وركبهم، وامتلأت أيديهم بالمجل الدامية، وكافحوا من أجل الحياة بالمناشير الكليلة، وأشعلوا النيران في الليالي وغنوا أغاني الجياع، وناموا في الغابات على العشب، وكانوا يبكون ويلعنون الليالي والعالم، ومع ذلك جاءت البواخر، وهي تنفث دخان الخشب، ووقف أساتذة الجامعات في البواخر بدلاً عن الوقّادين، وبُقِّعَت سترات الأساتذة بالدهن مثل قمصان العمل... كان نيكوليف يتحرك هنا وهناك، واندفع مسرعاً إلى هناك، على صهوة حصان الأمير الكميت، وكان كوزيا يسير خبباً خلف نيكوليف على حصان مخصي أعرج: كل ما فُعِلَ كان لا بدّ منه ـ بغض النظر عن كل ما حصل... وكان كوزيا دائماً ما يلوح بمسدسه...

... كان الوقتُ ليلاً. لم يُنهِ نيكوليف الرسالة في ذلك الوقت، فقد طبعت الشموع واقعاً حقيقياً جديداً من شحم الشمع على قماش المكتب الأخضر. إذ دخل آنذاك كونكوف الغرفة وهو يحمل بيده مسدساً ملوَّثاً بالتراب ووجهه مغبَرّ من التراب. قال كونكوف هامساً: «أيها الرفيق أنطون! إيليا كاندين ـ قتله القرويّون، في محلّ قطع الأشجار من دون ترخيص. وصلت مفارز الاستطلاع العسكرية إلى كادوم وفيازوفي وبيلوكون، ولا يمكن تحديد ما إذا كانوا من البيض أو من الحُمر. والقرويون يقومون بأعمال شغب!»... فاستقبل نيكوليف كونكوف بقشعريرة من الخوف ـ والمسدس في يديه، ثم أنزل المسدس، وجلس عاجزاً على الطاولة ليصمت دقيقة تكريماً لوفاة رفيقه. ولكن بعد ذلك، ضغط كلاهما بشدة على مقبَضَي مسدَّسَيهما، بعد أنْ اقتربا من بعضهما البعض اقتراباً شديداً: إذ خشخشت خارج النافذة عدة خطوات مخفية، وأعيد فتح تَرابيس البنادق، وعلى الفور ظهرت نقاط فوّهات البنادق سوداء في الأبواب والنوافذ، ـ ودخل الغرفة بحارٌ، بهدوء، وبجدية. لم يستل مسدسه من الحافظة. وقال:

ـ أيها الرفاق، لا تتحركوا. ارفعوا أيديكم يا رفاق. أخرجوا وثائقكم الثبوتية!

ـ هل أنت شيوعي، أيها الرفيق؟

ـ أنتم رهن الاعتقال. ستذهبون معنا إلى الباخرة.

تحولت الأرض إلى فصل الخريف وكانت الليلة سوداء مظلمة، والمساحات المفتوحة على نهر الفولغا كانت تفوح بكراهية رطبة. في الظلام، عند القارب ثمة نسوة رفعنَ أصواتهن بالعويل والبكاء. وودَّعهنَّ يغوروشكا وكوزيا، مثل وداع المجندين الجدد. نفثت البواخر في الظلام، ولكن لم تكن ثمة أضواء على البواخر. جلسوا، وانطلقت الباخرة. جلس كوزيا بجانب نيكولييف، وقال:

ـ ما الأمر، هل يأخذوننا ليعدمونا رمياً بالرصاص؟ (وصمتَ قليلاً) ـ إنّي أعتقد ذلك، لكنّي، على كل حال، حافٍ، سأقفز في الماء وأسبح بعيداً...

صاح البحار:

ـ لا تهمس!

فزمجر كوزيا:

ـ قل، إلى أين تأخذنا، ولماذا؟

ـ هناك، ستعرف، إلى أين نأخذك.

نُقِرَ على متن الباخرة.

ـ استلم طرف الحبل.

ـ ثبِّت حبل الرسو!

صفَّرَت الباخرة بأصوات بشرية. كان نيكولييف أول من صعد إلى ظهر الباخرة.

ـ ادخل إلى حجرة الربان!

في حجرة الربان احتشد مسلحون؛ وكان بعضهم يتمنطق بأحزمة، عُلِّقَت فيها رمانات (قنابل) يدوية، مثلما يُعَلَّق الريش في أحزمة الهنود الحمر، وآخرون كانوا ببساطة يتمنطقون بأحزمة الرشاشات، وقد تناثرت عند أقدامهم لفافات التبغ.

واتضح:

إنَّ فوج الفلاحين الثوري السابع فقدَ رئيس أركانه، وكان الوحيد على متن السفينة الذي يستطيع القراءة باللغة الألمانية، وقد استبدلت بالخريطة العسكرية خريطة من أطلس ألماني؛ وضعت الخارطة في مقصورة الربان على الطاولة ـ رأساً على عقب؛ تحرك فوج الفلاحين السابع لضرب القوزاق(16) من أجل اختراق الطريق نحو أستراخان ـ وكلما ساروا أبعد وفق الخريطة، كلما ازداد عدم الفهم أكثر؛ وضع نيكولييف الخريطة بالطريقة الصحيحة، ـ فتجادلوا معه، ولم يثقوا به؛ ثم جلس نيكولييف طوال الليل مع ضباط الأركان ـ البحارة، وعلمهم كيفية قراءة الكلمات الروسية المكتوبة بخط لاتيني؛ ففهم البحارة بسهولة، وعلقوا على الحائط ورقة تُرجِمَت فيها الأبجدية اللاتينية إلى الروسية. حلَّ الفجر من خلال الزجاج الباهت، فأُطلِقَ سراح نيكولييف. قال كونكوف إنه سيبقى على متن الباخرة؛ وكان يغوروشكا وكوزيا نائمين بجوار المدخنة، فهزَّهما نيكولييف ليوقظهما...

... وعندما ابتعد الزورق عن الباخرة، دوّت إطلاقة مدفع خلف الجبل، فاندفع الماء بالقرب من الزورق في هدير جنوني إلى السماء. كانت هذه إطلاقة أطلقها القوزاق، الذين تقدموا نحو فوج الفلاحين الثوري السابع (والأول والعشرون) الذي سمي على اسم البحار تشابيلغين...

... الناس من أمثال نيكولييف، خجولون في الحب: ـ إنهم عفيفون وصادقون في كل مكان. أحياناً يكذبون، باسم السياسة وباسم الحياة، ـ وهذا، في حقيقته، ليس كذباً ونفاقاً، بل مكر عسكري محض؛ إنهم مع أنفسهم صادقون وعفيفون، صريحون وصارمون.... ثم، في اليوم الأول من الإقامة في مدينة ميدين، غمرت الشمس المكتب، وكان الجوّ مبهجاً للغاية: ومن ثم، بعد بضعة أيام، في ذلك الأسبوع المقمر نفسه، في عتمة القمر والندى، قال نيكولييف ـ من خلال الشمس كلها، ومن خلال كل ما هو إنساني جميل ـ «أحبُّك، أحبُّكِ» ـ لتكن في هذا الحب الشمس والإنسان: حينئذٍ فاحت رائحة الزيزفون التي تثير الثمل وكان القمر أحمر، فخرجا من الغابة إلى الحقول، التي كانت تقشر فيها إيرينا والعمال اللحاء ـ قشرت اللحاء الحي من الأشجار الحية لكي تدبغ بها جلودها الميتة. ـ كانت لدى إيرينا أرسينييفا طفولة تفوح منها رائحة الفطائر، تلك الطفولة التي أرادت تقويمها في خطوط شوارع بطرسبورغ المستقيمة، ـ وكبرت كثيراً ـ مثل أمنا الأرض ـ مثل أزهار الخزامى في السهوب (التي تُزهر لمدة أسبوعين فقط في الربيع)، ـ لتكون دبّاغة للجلود. أجل، إيرينا أرسينييفا، المرأة الجميلة. كان المنزل على حاله، لكن الأيام اختلفت، وامتدت على نحو واسع، ولم يعد في المنزل الكَتَبَة، ولا المحاسبون، ولا أبوها، ولا أمها. كان عليها أنْ تعمل مهما كان الأمر. ولا بدّ من إعادة بناء كل شيء. كان المنزل على حاله، لكن الفطائر اختفت من المنزل، وفي المكان الذي كان غرفة طعام (الذي وجِدَت فيه الفطائر) توجد الآن أَسِرّة العمال، بقي لإيرينا العلِّيَّة (الطابق الأوسط)، وحقيبة، وسلة فيها كتب، وسرير، وطاولة، وبندقية، وعينات من الجلد، وعاش في الزاوية جرو الذئب (عن جرو الذئب سوف نتكلم لاحقاً...). ولكن خلف المنزل وخلف الأسوار (المنزل المنتصب على طرف القرية) امتدت السهوب، كما كانت من قبل، ذابلة، منعزلة، في التلال وفي الوهاد الضيقة، لذلك لم تنسَ هذه الذكرى في الليالي المقمرة منذ الطفولة... أنَّ كل امرأة ـ أُمّ. فكان عليها أن تركب العربة المسقوفة وتندفع فيها إلى الغابة من أجل تقشير اللحاء؛ وكان ينبغي عليها الإسراع إلى المدينة، إلى المجلس الاقتصادي الشعبي لكي تشتمهم هناك؛ وكان لا بدّ لها من الخوض في جميع أنواع المشاكل في التجمعات في القرية، وفي الاجتماعات في المدينة؛ وكان عليها أنْ تتحدث عن الجلد المُحَضَّر للدباغة، وعن باطن جلود الحيوانات، وعن الأدمة، وعن

الرماد، وعن الجلود المدبوغة، وعن التقشير، وعن التجفيف، وعن الفرك (أيْ الدعك بذرق الطيور)، ـ وفي بعض الأحيان كان ينبغي عليها تغطية العمال بحصيرة لم يلعقها الكلب، لكي تنال احترام الجميع، حتى الفرّائين أنفسهم؛ خلف السياج انتصبت أكشاك خشبية مؤقَّتَة، وامتدت أحواض الغسل والتمليح على شكل صفوف، ومن الجهة الخلفية أُلحِقت بناية المسلخ، وبُنِيَت أكشاك خشبية مؤقَّتَة لمصانع الصابون والغراء؛ وكانت هناك سقيفة صغيرة، طُحِنَت فيها عظام الخيول وحُوِّلَت إلى غُبرَة؛ فكان ينبغي عليها إعادة بناء كل شيء، وتنفيذه من جديد بطريقة حديثة. وكان عليها أنْ ترتدي سترة مثل سترة الرجال، وتضع مسدساً على الحزام، ـ وكان لا بدّ من تفصيل الحذاء حسب الطلب: فقدمها صغيرة! لم يكن ينبغي لها أنْ تنحني على جرو الذئب في المساء، وتنظر في عينيه، وتتحدث إليه بكلمات رقيقة، وتشمّ رائحته، رائحة الذئاب المرة!... وها هي في النهار المشمس المفعم بالحيوية ـ بكل روح أمّنا الأرض، التي تصل عندها إلى حدّ الامتلاء، ـ أحبَّت، ووقعت في الحب! ـ ومن ثم، في ذلك الأسبوع المقمر نفسه، في عتمة القمر والندى، عندما قال نيكوليف: «أحبُّك، أحبُّكِ»، ـ بقي القمر فقط، وبقيت أمنا الأرض فقط، فاستسلمت له، هي ـ البنت ـ المرأة التي بلغت من العمر ثلاثين عاماً، بعد أنْ أعطت كل شيء، كل ما جُمِعَ خلال هذه الثلاثين ربيعاً. ـ أما هو، نيكوليف، فكان يأتي إليها في الأمسيات ويصعد إلى الأعلى، في العلّيّة؛ في بعض الأحيان لم تكن في المنزل، فآنذاك، عندما ينتظرها، كان يبحث في كتب حرفة دباغة الجلود الغريبة عنه ويحاول اللعب مع جرو الذئب؛ لكن جرو الذئب يتصرف على نحو عدواني معه: كان جرو الذئب ينزوي في إحدى الزوايا، وينكمش، ومن هناك تنظر عيناه الغريبتان، الثاقبتان، الحذرتان تماماً، وتراقبان كل حركة، من دون أن تتجاهلا أيَّ شيء، ـ وكان جرو الذئب يكشّر عن أسنانه في بوزه الصغير العاجز، وتفوح منه رائحة الكلاب الكريهة، الحامضة، التي لا يطيقها الإنسان... ثم تدخل إيرينا، وفي كل مرة يُخَيّل إلى نيكوليف أنَّ الشمس تدخل، فيُصاب بالعمى من فرط السعادة. لم يلاحظ نيكوليف أنَّ إيرينا كانت تطعمه دائماً أشياء لذيذة، لحماً مُقَدَّداً، ولحم الخنزير، وغالباً ما كانت هناك إما فطائر منتفخة أو كعك مُحَلّى، وهو ما كانت إيرينا تراه ضرورياً، على كل حال! ـ وكانت تعدّ تلك الفطائر وذلك الكعك بنفسها. لم يلاحظ نيكوليف أنَّ هذا المنزل

بأكمله، حتى الفطائر، تفوح منه رائحة غريبة غير مفهومة له ـ رائحة جلد، أو شيء من هذا القبيل. وبعد ذلك يذهب نيكولييف وإيرينا إلى السهوب، وينزلان إلى الأخدود، الذي في أعلاه تحني أزهار عباد الشمس برؤوسها، وفي الأسفل تصدر السناجب الأرضية صريرها وتتجمد بلا حراك... ثم يصعدان إلى الجانب الآخر من الوادي، ـ ويمكثان هناك في أماكن بكر تماماً، لم تمر بها حتى جحافل التتار. استسلمت إيرينا لنيكولييف بكل روحها، روح أمنا الأرض، ـ اعتقد نيكولييف أنَّ الشمس كانت بين يديه. لم يمارسا طقس الانتقال إلى المنزل الجديد، الذي يشتمل على ديك أسود وقطة سوداء (على الرغم من أنَّ القمر كان بدراً) ـ لأنهما كان لديهما الحب والسعادة.

وتحطمت هذه السعادة إلى قطع صغيرة، تماماً مثلما تتحطم الأواني الفخارية إلى قطع صغيرة في حفلات زفاف الفلاحين في القرية. ـ فهمَ نيكولييف رائحة إيرينا ولم يستطع التغلب عليها.

وصل نيكولييف بعد الظهر. لم يكن في العلِّيَّة سوى جرو الذئب. في بوابة المصنع جلس الحارس، وهو رجل عجوز، وقال له:

ـ لقد اقتيدت من الجيش خيول مُنهَكَة مُتَردّية، فذهبت إيرينا أرسينييفا إلى هناك.

تمشّى نيكولييف في المصنع، ومرّ من جانب الأحواض الضخمة الهامدة، وتقزز من الدخول إلى الأكشاك الخشبية، وخرج عبر باب السياج الخارجي إلى الفناء الآخر ـ وهناك رأى...

... في الفناء كان ثمة ما يقرب من أربعين من الخيول المُنهَكَة تماماً. كانت الخيول عمياء، وشعرها مُتساقط، وغير قادرة على الوقوف على قوائمها (عندما تفقد الخيول القدرة على الحركة، تكون أرجلها مثل الأقواس)؛ بدت الخيول وكأنها نساء عجائز متسولات مُرعِبات؛ احتشدت الخيول في جنون على نحو عشوائي، رؤوسها إلى الداخل، ـ لم تكن لدى الخيول ذيول، ولديها في مكان الذيول مجرَّد أَعجاب(17) رمادية متقشرة، كانت ترتجف ارتجاف تشنج. هنا، في هذا المكان بالذات، خلف السياج المنخفض، تُذبَح الخيول، الواحد تلو الآخر،

بعد أنْ يُؤخَذ كل واحد منها بالقوة من القطيع. وقد فُتحت بوابة هناك إلى المسلخ، وكان أربعة من الرجال يدفعون الحصان الذي يقاوم إلى البوابة، ويكسر أحدهم عَجَبَ (طرف) الذيل، في محاولة لإجبار الحصان على الذهاب إلى الذبح، ـ خرجت إيرينا من البوابة، وضربت الحصان على رقبته بقرمة من الخشب، فتمايل الحصان من الضربة ومضى إلى الأمام. كانت إيرينا ترتدي مِئزَراً ملطخاً بالدم وسروالاً جلدياً. ركض نيكوليف نحو البوابة. وعندما ركض إلى هناك، كان الحصان قد تمدد على الأرض، وارتعشت ساقاه ارتعاشاً متشنجاً، وانزلقت شفتاه الميتتان من أسنانه، وشُدَّ لسانه على أسنانه واختلطَ بلعابه الأصفر، فتناول عاملان الحصانَ، وجعلا يسلخان جلده الذي لا تزال فيه الحياة؛ تدلّى عَجَب الحصان المكسور في الأعلى. فصاح نيكوليف:

ـ يا إيرينا، ماذا تفعلين؟!

قالت إيرينا على نحو جدي، ولكن على عَجَل للغاية، كما بدا لنيكوليف:

ـ الجلد يُستخدم بمثابة بطانة تقوية (للأنفاق والمناجم)، والمواد الدهنية تستخدم للصابون، والمادة البروتينية نطعم الخنازير بها. ويذهب العصب والعظام إلى مصنع الغراء. ثم تُطحن العظام لتُستَعمَل سماداً لتخصيب التربة. إننا نستفيد من كل شيء.

كانت يدا إيرينا ملطَّخَتَين بالدم، والأرضية كلها مكسوة بالدماء ـ كان العمال يسلخون الحصان، ثمة جثث أخرى لخيول مسلوخة ـ عُلِّقَ الحصان من ساقيه، على بكرة، إلى المشنقة.

أدرك نيكوليف: الرائحة هنا، تشبه الرائحة التي تفح دائماً من إيرينا، وشعر أنَّ تشنج غثيان يضغط عليه إلى حلقه. فوضع نيكوليف يده على فمه، كما لو كان يريد أن يكبح القيء بيده، واستدار وخرج بصمت، إلى خلف السياج، نحو السهوب. كان نيكوليف عفيفاً في الحب. كان دائماً نشيطاً ويحب أنْ يكون «من دون حمقى» ـ فمشى في السهوب مثل الأحمق، من دون أنْ يعتمر غطاء الرأس، الذي نسيه في العلّية قرب جرو الذئب.

لم ير نيكولييف إيرينا مرة أخرى....

امتدّت الغابات على نحو خفي، بصمت. كان عفريت الغابة يعيش في الوديان والفلوات (كما قال كوزيا)... اشتعلت هناك نيران في الليالي، نيران عدوانية. لو كانت ثمة أذن كبيرة، لسمعَت كيف ينادي أفراد الدوريات على بعضهم البعض، وكيف تسقط الأشجار، الملايين من جذوع الأشجار (لكي تدفّئ نهر الفولغا والثورة)، ولكانت الأذن تسمع الصفير والرد على الصفير، والصراخ والرد على الصراخ... رقدت أمّنا الأرض في الغابات... كان الوقتُ فجراً، عندما حلقت قذائف المدفع فوق الغابات، من أجل أنْ تطرح الحقيقةَ. فذهب نيكولييف إلى المنزل، ونادى على كوزيا ويغوروشكا، كي يأتوا إليه، وقال لهما، وهو يقف خلف الطاولة:

ـ أيها الرفاق. يجب أنْ نقرر كيف سنتصرَّف. الحرب تدور رحاها من حولنا. هل سنبقى أم نذهب. بالنسبة لي، سأرحل عنكما، وألتحق بالجيش الأحمر. افعلا ما تريانه صحيحاً. إذا كنتما تريدان، تعالا معي.

صمتَ كوزيا قليلاً. ثم سأل يغوروشكا: «ما رأيك، يا يغوروشكا؟» فرد عليه يغوروشكا: «لا أستطيع الذهاب على الإطلاق، لقد بنيتُ كوخاً جديداً، وربما، على سبيل المثال، سوف يُسرَق كل شيء فيه، ـ الأفضل لي أنْ أهرب إلى القرية»... أسبل كوزيا يديه على جانبيه وأجاب، أصالة عن نفسه ونيابة عن يغوروشكا:

ـ يشرفني أن أبلغك، أننا سوف نبقى في الغابات!

جلس نيكولييف إلى الطاولة وقال: «انصرفا(18)، وما يتبقى مني، اقتسماه بالتساوي، سآخذ معي البندقية فقط. يا كوزيا، تعال بعد ساعة، سأعطيك رسائل، ستنقلها».

خرج كوزيا ويغوروشكا. انفجرت قذيفة فوق المنزل.

كتب نيكولييف على عَجلٍ(19) على قطعة صغيرة من الورق:(20)

«إلى إيرينا سيرغييفنا أرسينييفا. يا إيرينا، سامحيني. كنت صادقاً ـ معك ومع نفسي. وداعاً، سامحيني إلى الأبد، لقد علمتِني أنْ أكون ثورياً»....

* * *

لكنه لم ينته من كتابة الرسالة، لأنَّ قُشَعْرِيرَة أخذَتْهُ واستولت على جلده كله، وفاح كل شيء برائحة الجلد المتعفن وعسل التبغ الكريهة. فارتجفت يداه، وارتجَّ شعره على رأسه: فقد انتابه الخوف والرعب. كانت الليلة حالكة الظلام، وتراءت جهة المشرق من بعيد بلون أرجواني، وكانت القذائف تنفجر بعيداً، وفي الجوار عمَّ الهدوء التام. جلس نيكولييف خلف الطاولة، وجعل يتنصَّت، ويحدّق بعينه كالمسوس؛ ثم ركض على رؤوس أصابعه نحو الباب: كان الجوّ هادئاً هناك؛ فأطفأ الشمعة التي على الطاولة، ثم تجمَّد، وصرخ: «انصرِف!» ـ وبعد ذلك، هرع إلى النافذة، وفتحها، وقفز منها، ـ ركض بجنون، وبسرعة، إلى الجبال. ولا تزال القشعريرة تستولي على جسده أكثر فأكثر، ـ لا بدّ أنْ شعره المجعّد على شكل حلقات قد شاب وابيضَّ، وراح يهتز على رأسه...

وجد كوزيا هذه الأسطر الثلاثة فقط من بداية الرسالة على الطاولة في الصباح وأخذها وراح بها حسب العنوان...

عن جرو الذئب

كانت ليلة غاب القمر فيها، وهطل مطر خفيف. عادت إيرينا من السهوب، مرت عبر القرية، وسمعت كيف تعوي الكلاب في القرية؛ تجمدت القرية في صمت وظلام. دخلَت الفناء، ومرت من جانب الأحواض، لم يصادفها أحد؛ فصعدت إلى عليَّتها. أصغت إلى الصمت ـ كان جرو الذئب يتنفس في مكان قريب في الغرفة. أشعلت شمعة، وانحنت على جرو الذئب، ثم همست: «يا عزيزي، أيها الوحش الصغير، تعال إليَّ!...» انزوى جرو الذئب في الركن، وجلس على قائمتيه الخلفيتين، وطوى ذيله الوبري تحته، وعيناه السوداوان

تتربصان كل حركات يَدَي إيرينا وعينيها. وعندما التقت نظرتاهما، صارت عينا جرو الذئب الثاقبتان غريبتَين جداً، وعدوانيَّتَين إلى الأبد. كانت إيرينا قد وجدت جرو الذئب وهو بعدُ لا يزال أعمى، وأطعمته من البزّازة، وأرضعته كالطفل، وانكبَّت عليه لساعات، تهمس له بكل الكلمات الرقيقة التي عرفتها من والدتها ـ كبر الجرو بين ذراعيها، وبدأ يلعق من الصحن، وصار يأكل بمفرده، ـ ولكن بقي جرو الذئب إلى الأبد يشعر بنفسه عدوّاً لإيرينا. لم تكن ثمة طريقة لترويضه. وكلما كبر الجرو أكثر، كلما صار أكثر عدوانية واستغراباً لإيرينا، فكان يهرب من يديها، وتوقف عن الأكل بحضورها، ـ وكانا يجلسان لساعات أمام بعضهما البعض، ووعاؤه بينهما، عرفت ـ أنه جائع، فتوسّلت إليه بألطف الكلمات، ـ «كُلْ، كُلْ، يا عزيزي، ـ أرجوك، كُلْ، فأنا، على أيِّ حال، لن أذهب من هنا!» ـ فيظلّ جرو الذئب يراقب عينيها ويديها بعينيه الزجاجيتَين، ولم يتحرك، ولم ينظر إلى الوعاء، ـ إلى أنْ تغادر، ثم يأكل كلَّ شيء على عجل إلى القعر؛ كان يعوي ويكشِّر عن أسنانه عندما تمد يدها إليه؛ لقد كان عدواً لها إلى الأبد، ولم تكن ثمة إمكانية لترويضه؛ لاحظت إيرينا عدة مرات أنَّ جرو الذئب يعيش على انفراد برضاً شديد، في ظل اهتماماته الشخصية: فهو يركض في الغرفة، ويتفحّص الأشياء ويشمّها، ويتدفّأ في الشمس، ويصيد الذباب، ويستلقي مُستَمتِعاً، ويرفع ساقيه إلى الأعلى، ـ ولكن بمجرد أن تدخل إيرينا، ينزوي إلى ركنه، ومن هناك ينظر إليها بعينيه السوداوَين المتيقظتين كل اليقظة.... وضعت إيرينا الشمعة على الأرض، وجلست القرفصاء مقابل الذئب، وخاطبته قائلةً: «يا وحشي الصغير العزيز، يا نيكيتوشكا، أرجوك، تعال إلي، ـ فأنت ليس لديك أم، سوف أحتضنك بذراعي!» دخنت الشمعة، وأومضت، ـ كان العالم ـ عالم إيرينا وعالم جرو الذئب ـ محدوداً بلوح السرير الأمامي وبالجدار وبالموقد، أما السقف فلم يكن مرئياً، لأن الشمعة دخنت ولأن كلا الزوجين من العيون ينظران إلى بعضهم البعض. مدت إيرينا يدها لتمسّدَ على جرو الذئب ـ فاندفع الجرو إلى هذه اليد، وانقضَّ عليها إلى الموت، بكراهية مروِّعة، وانغرزت أسنانه في أصابعها، وتشبّث بها بضغينة، من دون أنْ يفتح فكيه؛ سحبت إيرينا يدها جانباً، فتعلَّق جرو الذئب على يدها من أسنانه، ثم سقط الجرو من يدها، بعد أن مزق اللحم من أصابعها، واصطدم بالسرير، ثم عاد الجرو وجلس كما في السابق في الركن: ومن هناك نظر بعينيه الثاقبتَين المتيقظين

تماماً، وكأنَّ شيئاً لم يحدث على الإطلاق. فراحت إيرينا تبكي بمرارة ـ ليس من الألم، وليس من الدم المتدفق من يدها: لقد بكت من الوحدة، ومن الاستياء، ومن العجز ـ مهما أحببتَ الذئب، يبقى يتطلَّع إلى الغابة، ـ كانت إيرينا عاجزة أمام الغريزة، ـ ها هي، أمام كومة رخوة صغيرة ذات رائحة كريهة من غرائز وحش الغابة، تجلس الآن خلف السرير ـ أمام تلك الغرائز التي عاشت فيها، وتحكمت بها، ـ التي جعلتها الآن تذهب في المطر، إلى السهوب، لكي تبكي على ذلك التل الذي أسلمت نفسها فيه لنيكوليف؛ ـ وفي حالة من الضعف والاستياء والوحدة (كلما ازداد حبها لجرو الذئب، كلما اشتد حنقه عليها أكثر) ضربت جرو الذئب ضرباً مُبرحاً على رأسه وعينيه وسقطت على السرير في نوبة من البكاء، في الوحدة، وفي التعاسة. وبقيت الشمعة بالقرب من جرو الذئب....

آنذاك قُذِفَ حجر إلى النافذة، فانهال الزجاج، وصرخ صوت مكبوت خارج النافذة:

ـ أيتها الرفيقة أرسينييفا! اهربي! ماذا تنتظرين، فقد غادر الجميع ـ القوزاق في القرية، أسرعي! ـ هيّا بنا نذهب إلى الغابات!...

تناهت من خارج النافذة قعقعة سريعة من الحوافر ـ من القرية إلى السهوب، إلى الغابات...

... ذبلت السهوب في الخريف دفعة واحدة، وتلبَّدَت السهوب على الفور بكآبة رمادية فسيحة. جاء الصباح في رذاذ من المطر الخفيف، وسخاً، وكئيباً للغاية. مرت من جانب بوابة المصنع المحطَّمة مفرزة من القوزاق الخيالة وهم يغنّون. خرج ثلاثة من القوزاق من البوابة واندمجوا مع البقية، لم يسمع أحد كيف تكلم القوزاق عن المرأة الشيوعية الجميلة التي عثروا عليها في الليل عن طريق الصدفة... وبعد أنْ خمدت الأغنية، عاد الصمت مرة أخرى في بوابة المصنع المحطَّمة... في فناء المصنع، انتصبت الأحواض التي تفوح منها رائحة الجلد الميت والمدبوغ، وعلى الحوض الأوسط غُرِزَ خازوق أُجلِسَت عليه إيرينا ـ إيرينا سيرغييفنا أرسينييفا. جُرِّدَت من ملابسها إلى حدّ العري التام؛ كانت رجلاها مشدودتين إلى الخازوق. كان وجهها ـ وجه الحسناء ـ قبيحاً من الرعب، وعيناها زاحفتين

من تجاويفهما. كانت على قيد الحياة. ثم ماتت في المساء. لم يدخل أحد إلى فناء المصنع طوال اليوم.

تأخر كوزيا في توصيل رسالة تيكولييف إلى إيرينا. جاء في الليل. كان بابا المنزل والفناء مَفتوحَين، ولم يكن هناك أحد. فشق طريقه إلى العلّية، أشعل عود ثقاب، فرأى كل شيء قد حُطِّمَ هنا. كان في الزاوية خلف السرير على الأرض شمعدان فيه شمعة لم تحترق كلها، وأطلَّت من خلف الشمعدان عينا الذئب. أشعل كوزيا الشمعة، وتفحص الغرفة بعناية، نكشَ آثار الدماء على الأرض، وقال بصوت عالٍ لنفسه: «هل قتلوها؟ أم أصابوها؟» ثم انتبه إلى جرو الذئب، وتفحّصه، وابتسم ابتسامة عريضة، وقال: «اللعنة. يقولون إنَّه جرو ذئب... يا لهم من حمقى! إنه ثعلب!» جمع كوزيا كل الأشياء الموجودة في الغرفة، ولفها في بطانية، وربطها بحبل، ثم أخذ ملاءة من السرير، وأمسك بجرو الثعلب بهدوء من طوقه، ولفه، وضع الرّزَم على ظهره، وأطفأ الشمعة، ودسّ الشمعدان في جيبه، ثم خرج من الغرفة.

وسرعان ما سار كوزيا عبر الغابة. كانت الغابة صامتة، سوداء، هادئة. لو علمَ نيكولييف لاندهش كيف لم يفقس كوزيا عينيه في الظلام. سار كوزيا عِبرَ أقصر طريق، من خلال التلال، ومن خلال المسارات الضيّقة. إنه لم يفكر في عفريت الغابة، ولكنه مع ذلك لم يصفِّر. كان حِمل الرّزَم ثقيلاً.

لا بدّ أنَّ كوزيا قد صُدم من حكاية جرو الذئب، لأنه قال ليغوروشكا وماريشا وكاتياشا عدة مرات: «الحمقى، يقولون إنه جرو ذئب، بينما، هو ثعلب! لدى جرو الذئب ذيل مثل قرمة الخشب، وهذا لديه في طرفه فرشاة سوداء، ولاحِظوا، آذان سوداء. بالطبع، من أين للسادة أن يعرفوا عن هذا: فهذا لن يميزه حتى كل الصيادين، لكنني أعرف!».

بحلول الخريف، وبحلول الثلوج، لم يعد هناك أي شك في أن جرو الذئب هذا كان ثعلباً. قتل كوزيا جرو الثعلب، وسلخ جلده ودبغه وفصَّلَ منه قبعة ذات لسانين تغطي الأذنين.

موسكو، شارع تفيرسكايا

20 نوفمبر (تشرين الثاني) 1924

(15) ميكولا: ميكولا سيليانينوفيتش، بطل أسطوري في الحكايات الملحمية الروسية. في الفلكلور الروسي ملاحم كثيرة مخصصة لميكولا. وفقًا لإحدى الملاحم، يطلب منه العملاق التقاط كيس سقط على الأرض. ثم يرفع ميكولا سيليانينوفيتش الحقيبة بيد واحدة، قائلاً إنها تحتوي على «كل ثقل الأرض». (المترجم).

(16) القوزاق: مجموعة إثنية للسلافيين الشرقيين الذين يقطنون بجملتهم السهوب الجنوبية في شرق أوروبا وروسيا وكازاخستان وسيبيريا. وهناك أكثر من فرضية بشأن أصل القوزاق ومن أين ينحدرون، ثمة فرضية تقول إن القوزاق هم فئة عسكرية من الناس ضمن روسيا. ولا يوافق على ذلك القوزاق أنفسهم، إذ يعتبرون أنَّ أصولهم أعرق بكثير. ومن المعتقد أن موطن القوزاق هو خط من القلاع والحصون كان يمر من نهر الفولغا الوسطى باتجاه مدينتي ريازان وتولا ثم ينعطف نحو الجنوب ويصل إلى نهر الدنيبر في منطقة مدينتي بوتيفل وبيرياسلاف. (المترجم).

(17) عَجْبُ الذَّنَبِ: الجُزَيءُ في أصلِ الذَّنَب عند رأْس العُصْعُصُ. (المترجم من القاموس المحيط).

(18) في طبعة أخرى للقصة وجدت هذه العبارة: «انصرفا، أنا أيضاً سأبقى، وسوف نرد على النار». (المترجم).

(19) في طبعة أخرى للقصة وجدت هذه العبارة: «كتب نيكولييف بتمهّلٍ». (المترجم).

(20) في طبعة أخرى للقصة وجدت هذه العبارة: «إلى لجنة الحزب في المحافظة. أيها الرفاق، سأغادر الغابات. أنا في عجلة من أمري، لأن معركة تدور رحاها في مكان قريب. سأغادر لألتحق بالجيش الأحمر، ولكن هذه ليست النهاية ـ أريد أن أعمل، لكن ليس في

الأرض، اللعنة عليها: أرسلوني إلى مصنع، يجب أن أعمل، هذا ضروري بالنسبة لي».
(المترجم).

1. الغلاف
2. أمّنا الأرض
3. الإهداء
4. أمّنا الأرض
5. الفصل الأول: الليالي والأيام
6. الفصل الثاني: ليالي وخطابات وقرارات
7. الفصل الثالث: عن أمنا الأرض وعن الحب الجميل